هيفاء بيطار

وجوهٌ من سُوريا

دار الساقي

تصميم الغلاف: سحر مغنية
خطوط العناوين: حمدي طبّارة

وجوهٌ من سُوريا

هيفَاء بيطَار

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى، دار الساقي 2013

ISBN 978-614-425-732-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى أطفال سوريا الذين أُجبروا على أن يعيشوا طفولتهم في السماء، وفي الخيام، وفي الشوارع، يتسوّلون رحمة قلوب مُتحجّرة بالحقد؛

إلى أطفال سوريا الذين يعلّموننا أن نكون مثلهم مساكن حب لأن بالحب وحده يمكن بناء وطن.

المحتويات

المقدمة	٩
ثورة	١١
طيور نورس ناصعة البياض	١٩
وجهان	٢٧
أم كفاح	٣٥
أضاحي العيد	٤٢
حبيبي اللكزوتان	٤٩
هبة	٥٧
هلال	٦٥
هيثم	٧٣
يوم في اللاذقية	٧٩
رُلى	٨٥
إياد	١٠١
الآن، هنا	١١٠
الثالثة فجراً	١١٨

الرجل الصرخة	١٢٥
اسماعيل	١٣٤
بقعة ضوء	١٤٤
ترويض الألم	١٥٢
تعويذة	١٥٨
لعبة الرحمة	١٦٥

المقدمة

يستحيل كتابة رواية وأنا جالسة على فوهة بركان. لن يتمكن قلمي من اللحاق بكل هذا القتل والدمار والنزوح. كيف يمكن كتابة رواية لم تُنجز فصولها بعد؟ كيف يمكن الكتابة وأنا أقيم في فوهة جرح مفتوح وملتهب ونازف اسمه سوريا؟ ما كان يشعرني أنني حية أو لا أزال على قيد الحياة هؤلاء المهمشون العظماء؛ هؤلاء هم الأبطال الحقيقيون.

الكتابة عن هؤلاء المهمشين الذين تحوّل وجودهم إلى تنويعات للمآسي ليست مجرد كتابة بل هي ثورة على الذات ضد الخوف؛ الخوف المزمن الذي "تشرّش" في قلوبنا وأرواحنا، رغم أننا حاولنا أن نزوِّر مشاعرنا وأن نسمي الخوف أماناً، لكنه أمان دجاجات في قفص. الخوف والذل وجهان لعملة واحدة هي اللاحياة. بعد كل هذا القتل اليومي والدمار المروع في سوريا لم يعد الخوف يخيفنا، بل بات كل سوري يشعر أن العين يمكنها أن تقاوم المخرز. لم يعد الخوف يخيفنا، بل صار الصمت يرعبنا لأنّ صوت الحق يدوّي في الصمت بصوتٍ أعلى من صوت الرصاص والقنابل والصواريخ بكل أنواعها. و لم يعد يخيفنا الموت، بل صرنا نخاف من حياةٍ تشبه الموت. و لم نعد نخاف الجثث الطازجة، بل

نخاف الجثث الحية؛ من بشرٍ يوهمون أنفسهم أنهم أحياء، متدثرين بذل الصمت. صحيح أن أيام السوريين مكتظة بالمآسي، وأنّ قلوبهم لم يعد فيها متّسع لحزن جديد؛ فقد طفح بهم الكيل من هول المعاناة، لكن من تربة الألم تولد بذور الرجاء بحياة كريمة معمَّدة بالحرية والكرامة والفرح.

إن الكتابة عن أحبتي السوريين، بكلِّ أطيافهم وانتماءاتهم، هي محاولة لخلق حياة فوق الأنقاض؛ محاوله لبعثهم أحياء من حفر المقابر الجماعية؛ ومحاولة لِلَأْم جروحهم النازفة وترميم تصدّعات أرواحهم.

الخوفَ هو عدو الحياة وعدو الحب، ولا شيء يحرّرنا سوى الحق. وكما تقول الحكمة الرائعة للزن: ما دمنا صامتين فإننا نكون واحداً، وإذا تكلمنا نصبح اثنين.

هؤلاء السوريون المتألمون والنازحون الذين ماتوا بالبساطة التي تموت فيها الفراشات المحترقة بالنور، والذين لا يزالون على قيد الحياة حتى اللحظة؛ هؤلاء العظماء الذين تكمن عظمتهم في عدم إدراكهم كم هم عظماء؛ هؤلاء سيضعون حجر الأساس لوطنٍ سيعلّم العالم قوة القيامة وقوة الحق، لأنّ الحق وحده يحررنا.

هؤلاء هم من يجب أن يحتلوا المنابر ويتحدثوا عن مشاعرهم ورؤاهم وأفكارهم، وأن يطردوا تجار الكلام وتجار دماء الشعب السوري الذين صاروا نجوماً زائفة على الفضائيات.

هؤلاء العظماء هم الأبطال الحقيقيون للثورة السورية: هلال وهبة وأحمد وإياد واسماعيل وأم كفاح وغيرهم؛ هؤلاء من يبقون روحي على قيد الحياة.

حتى اللحظة، بعضهم لا يزال على قيد الحياة، حتى اللحظة فقط!

ثورة

«الكذب دين العبيد، والحقيقة هي إله الإنسان الحر».

التقطت عيناه تلك العبارة التي كتبها في دفتر مذكراته منذ عشرين عاماً تقريباً!

كان من عادته أن يكتب عبارات أثرت فيه وأثارت إعجابه، ولم يعرف من كتب هذه الجملة الرائعة ومن أيّ كتاب اقتطعها، لكنه انتبه، بعد أن تمغنطت عيناه بتلك الكلمات التي أحدثت زلزالاً في روحه، إلى أنّ اسماً صغيراً باهتاً مكتوبٌ بين قوسين بجانب تلك العبارة، حدّق في الاسم فعرف أن تلك الجملة هي لغوركي.

أصابته تلك العبارة بالقشعريرة، واشتعل الهوى ذاته الذي يأسره منذ أشهر، هوى أكّال لم تنفع معه كل محاولاته للجم مشاعره، وكل نصائح أصدقائه؛ هوى أيقظ في ذاكرته ذلك اليوم البعيد؛ يوم أصيبت يداه بنوع من الأكزيما جعلته يهرش راحتيه بوحشية حتى يسيل منهما الدم، وكيف كانت أمه ترجوه باكيةً أن يتوقف عن الهرش فكان يقول ببراءة طفلٍ: لا أستطيع، جلدي يحكني بشدة.

كان في التاسعة من عمره حين عانى من تلك الهجمة الشرسة من

الأكزيما، والتي جعلته يتنقل بين عديد من الأطباء حتى شفي تماماً حين ابتسم له أحد الأطباء وقال: سوف تشفى دون دواء، هكذا من تلقاء نفسها... هل كانت فكرة الطبيب أشبه بنبوءة لأنه لم تمر أيام حتى استيقظ دون ذلك الشعور الأكال بالحكاك.

«الحقيقة هي إله الإنسان الحر»، رحمك الله يا غوركي، كيف استطعت أن تجسّد حقيقة الحقيقة. كان منفعلاً إلى حدّ أنه لم يلحظ أن أنفاسه صارت عميقة ومتلاحقة، وأن ملامح وجهه صارت مشدودة بلهفة الهوى المشتعل في قلبه منذ أشهر. إنه الآن في التاسعة والخمسين، كاتب، وزوج، وأب، وأخ، وصديق، وشريك في معمل لصابون الغار... وعَبد...

شعر أنّ دمه يسبب له الألم، وجلده يسبب له الألم، وكل أعضائه تسبب له الألم، لأنها كلها تنطق بحقيقة أنه عَبد، وأن كل مظاهر الرفاهية والاستقرار في حياته ليست سوى زيف، وكل محبة أصدقائه وأولاده وزوجته ومعارفه له لا يعني له شيئاً لأنه عَبد... لا يجرؤ على النطق بالحقيقة، يشعر بذلك السجن الدائم في أعماق روحه طول الوقت...

لكنه الآن اتخذ قراره: سوف يكتب عدة صفحات وينشرها ويقرأها بصوت عال؛ سوف يفجّر حنجرته من حباله الصوتية التي تعتقل صوت الحق. ما عاد قادراً ولا بأي شكل من الأشكال على أن يلجم ذلك الهوى الذي يُصادره، ولا يمكنه إنكار أن الله أعطاه الإشارة ليبدأ بتحقيق إنسانيته، وينطق بالحقيقة التي ستحوّله من عبد إلى إنسان حرّ.

ما معنى ألا يسقط نظره إلا على تلك العبارة البليغة لغوركي من بين آلاف العبارات التي كتبها!؟ ما معنى أن يقلّب دفتر مذكراته الضخم

الذي اصفرّت صفحاته التي تزيد عن الخمسمئة ولا تلتقط عيناه إلا تلك العبارة!؟

خفق دمه في موجاتٍ من الحماسة ونظر بعفوية إلى ساعته كما لو أنه يدشّن لحظة الحقيقة؛ اللحظة التي سيحوّل نفسه فيها من عبد إلى إنسان حر.

التمعت في ذاكرته أغلفة كتبه التي طبعت مراراً وتكراراً. أحسّ بالقرف وهو يدرك أنه تعامل مع الحياة كمادة للكتابة، وأنه لم يغمس يده يوماً في لحم الكون. كان يشعر أنه مراوغ، كتابته ذكية وشيقة وتعكس ثقافة واسعة، لكن ينقصها شيء جوهري هو الخلق. كان يعي، وهو يمسك القلم ويكتب صفحات ويدفع ما يكتبه للطباعة، مدى خوفه وحذره من أناس يمسكونه من رقبته بأصابعهم الغليظة، ويحوّلون حبال حنجرته إلى حبال لاعتقال صوت الحق، ومع كل كتاب صدر له، ورغم النجاح الذي حققه فإنه لم يكن بقادرٍ على أن يهرب من مشاعر القرف في داخله... كان يعاني من قرف عميق من نفسه و لم يكن يعرف سبب قرفه هذا خاصةً في اللحظات التي يتلقى فيها كل التقدير والإعجاب والإحترام... الآن أدرك أنه يعيش لحظة التحول من عبد إلى إنسان حرّ؛ أدرك أن الخوف هو سبب قرفه من نفسه.

منذ بداية ثورة الكرامة عند الشعوب العربية وهو يعاني من حالات نفسية وعصبية غريبة، كما لو أنه يُنسف من جذوره، حتى أنه كان يخجل من تلك الحالة التي لا تليق بعمر الوقار والحكمة، وهي حالة دائمة من أحلام اليقظة، كانت أحلام مباغتة كهبات من النسيم العليل، تصوره خارجاً في مظاهرات ضد الفساد والاستبداد والقمع، وهو يصرخ بملء

حنجرته وصوته يلتحم مع صوت الملايين المُهمّشة والمظلومة. كانت عيناه تدمعان من الوجد والهوى والشغف بكل تلك الكلمات التي كانت أشبه بجثة وقامت من بين الأموات. تدحرجت الصخرة عن قبر الكلمات واشتعلت الكلمات بنار الثورة، الحرية، الكرامة، العدالة، المساواة، الحق... يا للفعل المزلزل لكلمة مؤلفة من حرفين فقط، (الحاء والقاف)! يشعر أن الحرفين يلتحمان في حنجرته فقط، وحناجر التواقين للكرامة والحرية...

يريد أن يصرخ بصوت الحق، ثم يموت... كان يشعر أنه يكافح كفاحاً شاقاً حتى وهو جالس في المقهى يدخن سيجارة تلو سيجارة، يشعر أن حبالاً ثخينة تثبته بالأرض وهو يريد تقطيعها. كان مشوشاً بولادة جديدة جاءت متأخرة نصف قرن. كان عليه أن يتعرف نفسه الجديدة. أدهشه عمق التغيرات التي أصابته، كان رجلاً لا يحلم، فصار كل ليلة يبصر حلماً واحداً يتكرر بصور مختلفة، حلمٌ يعني أنه يتوق أن يكون الرجل الذي تمنى طول حياته أن يكونه، رجل حرٌ...

كان يعيش وسط مناخ دائم من الذعر موهماً نفسه أنه رجل عاقل تهمه مصلحة أولاده وسلامتهم. لم يكن هو نفسه مستعداً أن يُقتل أو يسجن بسبب حفنة أفكار! كان يرى وحشية الاستبداد وهو ينقل ذاكرته من مفكّر إلى مفكّر سُجنوا وعُذِّبوا بسبب أفكارهم، ليعترف أنه ما كان قادراً على دفع الثمن الباهظ لحرية الفكر؟ هل يُعقل أن يدفع من عمره سنوات مقابل فكرة؟؟ أي تهور هذا؟ لكنه في أعماقه كان يعاني عذاباً لا يوصف، عذاباً يصل إلى درجة الأنين من ألم الروح التي تعرف أي ذلّ وعبودية هو الصمت... كان يشعر أن روحه تركع إكباراً وتقديراً واحتراماً لهؤلاء

الذين ارتضوا أن يدفعوا ثمن الكرامة والحرية بدلاً عنه وعن أمثاله...

كان يشعر أنه مدين لهم وأنه صغير وتافه وضئيل مقارنة بهم. كان أحد معتقلي الرأي من أعز أصدقائه وقد سُجن لسنوات بسبب مقال، مقال لا يتجاوز المئتي كلمة، دفع ثمنه خمس سنوات في السجن... كان دائم التفكير بصديقه المفكر المعتقل، لم يكن قادراً على أن يبعده عن فكره للحظة. إنه يشعر بالقرف من نفسه وهو يأكل ألذّ الطعام، إذ يتخيل المفكر في السجن مع أكثر من عشرين سجين كلهم ارتكبوا جرائم قتل، فيقول لنفسه: أي بلدٍ يسجن مثقفيه مع المجرمين! لكنه يتابع التهام طعامه اللذيذ الصحي ومشاعر القرف من نفسه تتعاظم، كما لو أنه يبتلع قرفه من نفسه مع كل لقمة...

حتى وهو يقود سيارته كان يفكر بصديقه المُعتقل بسبب مقال فيحس بوجع فظيع في كل أنحاء جسده، ويشعر أنه يُصفع عن بُعد صفعات مدوية تهرس وجنتيه، وأنه يركع دون أن يركع، لأن روحه راكعة وعبدة. لم يكن واهماً، فقد ثارت روحه، وفي أعماقه ثورة حقيقية. سوف يكتب بضع صفحات فقط، لن تعنيه اللغة، ولا الصياغة الجميلة لأفكاره، سيكتب مجرد حقائق عاينها وعاش في قلبها، وباختصار، بل باختصار شديد، سيحكي عن تامر، طالب الإعدادية الذي لم يكمل الرابعة عشر من عمره، خرج في مظاهرة يطالب بالحرية، وبإسقاط النظام، كان سعيداً أنه يهتف ويغني أغاني وطنية حماسية، ويشعر طول الوقت أنه انتقم من الطالب الثري الذي يتباهى أن والده أحد أهم ضباط الأمن في المدينة، والذي حين ركله في الباحة لم يرضَ أن يعامله بالمثل، فشكاه للمدير لكن المدير لم يجرؤ أن يوجه كلمة لابن ضابط الأمن.

الجرح البليغ الذي أحسه تامر لم يلتئم، و لم يدافع عنه أحد، حتى أمه رجته أن ينسى تلك الركلة، لكنه صرخ وهو يبكي خزياً وغضباً: الركلة ليست في خاصرتي بل في روحي يا أمي.

اعتقل تامر مع ثلة من زملائه وعذّب بوحشية، ولكن أكثر ما روّعه حين وصلوا الكهرباء بعضوه وهم يطلقون الشتائم الفاحشة على أمه وأخته. كان يُصعق من الألم ويبكي وهو يرجوهم ألا يقربوا منه الكهرباء، ثم أحضروا كمّاشات حديد، وسحقوا حلمتيه.. وبعد أسبوعين خرج من المعتقل (وهو مدرسة قديمة) حطاماً... مذعوراً من الحياة، مروعاً وأسيراً لذهول طاغ...

كان يعرفه، طالمًا حمله بين ذراعيه وهو طفل... و لم يجرؤ أن يكتب عنه، كل ما استطاعه أن جلب له الكثير من الهدايا وحاول مواساته، لكنّ تامر لم يشكره على الهدايا و لم يتحدث إليه بكلمة، بل ظل يرمقه بنظرات باردة مبطّنة باحتقار. فهم من والد تامر أنهم هددوه أن يلتزم الصمت وإلا سيعتقلونه مجدداً إذا تكلم...

لم يستطع أن يتهرّب من عينا تامر المُعتمتان بالألم ونظرة الاحتقار له، كما لو أنه يحمّله مسؤولية ما جرى له، نظرة تعني: لماذا لم تكتب عني يا حضرة الكاتب العبد؟

كان يحتاج أن يتحدث عن رغبته في الكتابة عن تامر وأمثاله إلى أصدقائه، الذين استمعوا إليه بمحبة ونصحوه ألا يتهور وهو في عمر الحكمة، وأنّ الفوضى والانفلات الأمني الذي يرزح تحته البلد خطير، وأنه قد يدفع حياته ثمن مقال لن يقدّم ولن يؤخّر... كانوا يحبونه حقاً وحريصين عليه، وكان يعتقد، أو يجبر نفسه على الاعتقاد، أنه قد اقتنع

بحبهم، لكن سرعان ما يعود ذلك الهوى الأكّال يهرش راحته ليكتب، هوى أشدّ شراسة من تلك الأكزيما التي عانى منها وهو في التاسعة من عمره...

لم يعد القرار بيده، هذا ما أدركه بعد صراع طويل مع نفسه، لم يعد بمقدوره لجم الثورة التي أعلنتها عليه روحه، كل شيء صار مختلفاً، حتى شعاع الصباح الذي ينتظره بلهفة صار يحسّه مختلفاً. صار الضوء رذاذاً من الأمل، يحسّ الضوء يشبهه، يصارع مثله ليبدّد الظلمة... لا يمكن لإنسان عاشت روحه في الظلمات أن يخنق شعاع الأمل حين يشقّ حُجب الخوف والذل المعششة في روحه...

سيكتب عن العمال الثمانية في معمل الصابون، الذين استقالوا وذهبوا ليوقّعوا عقوداً كشبيحة لدى أحد أهم زعماء الشبيحة، الرجل الذي خرج من القاع، وصار ملياردير اً خلال سنوات قليلة. لم يخجل هؤلاء العمال أن يعلموه عن سبب تركهم معمل الصابون، قالوا له: ما يدفعه لنا في اليوم تدفعه أنت في شهر؟

تأمل وجوههم مبهوراً من سطوة الاستبداد، وبلحظة ذابت سنوات المودة والمحبة بينه وبينهم، ونسي أسماءهم... صاروا الشبيحة.

سيكتب عن أمير أيضاً؛ المجند الذي قُتل برصاص عصابة مسلحة؟ مَن تلك العصابات التي تقتل الناس والمجندين وتروّع الأهل منذ أشهر؟! لماذا لم يقبضوا على هذه العصابات؟!...

سيكتب، ما عاد بإمكانه إيقاف ذلك الهوى، كتب ثلاث صفحات، أحس بشعور غريب جعله يضحك من قلبه، كما لو أنه يتذوق طعماً رائعاً لم يتذوقه من قبل... كانت سبابته ترتعش على زر إرسال في الكمبيوتر

المحمول، بضغطة خفيفة من سبابته ستتحول كلماته المتعمدة بالكرامة والحرية إلى سرب من الفراشات الملونة المتباهية بجمالها والتي تشعر أنها تملك السماء والأزهار والأشجار... إنه على الحافة، حافة الحرية، وبعدها فضاء رحب أو هوة عميقة، لا يهم، لقد دشّن معموديته في تلك اللحظة التي ضغط فيها على زر إرسال، وتأمل المستطيل النحيل يمتلئ بالأخضر تدريجياً علامة الإرسال. شعر بصعقة كهربائية حين ضغط زر الإرسال، شعر تماماً، كيف فغر فاه مشدوهاً مما أقدم عليه وهو على عتبة عقده السادس، لكنه رأى بعينيه المكافحتين للتشبث بنور الحق، رأى – غير واهم – ذلك الضباب الذي خرج من جوفه، خرج على دفعات من فمه، ضباب الخوف، يا لكثافته! لم يخرج من أعماقه فقط، بل من أعماق سحيقة عمرها مئات السنين، ضباب نتن الرائحة وداكن، صار الخوف خارجه، خارجه تماماً، لقد تصالح أخيراً مع نفسه وشعر أنه بقامة صديقه سجين الرأي، نجح لأول مرة في تخيل نفسه أنه بقامته، وتذكر بشفقة كيف كان كلما حاول تذكّر يفرز خياله صورة المثقف السجين عملاقاً، وهو ضئيلاً كعقلة الأصبع، وكل محاولاته ليفرز صورته بقامة صديقه تفشل...

نجح الإرسال، الآن يحق له أن يفخر بنفسه وبما كتبه، شعر أنه ودّع شخصاً عرفه منذ عقود، ودّع نفسه وولد حراً... وفيما هو يستدير مغادراً مكتبه أحسّ بوخزة ألم حارقة في صدغه، تحسس نقطة الألم ففوجئ بتدفق سائل لزج ساخن من فوهة صغيرة... وانتبه لنقاط الدم تملأ قميصه الأبيض وترسم عليه حقلاً من شقائق النعمان...

غام نظره، وضحك متسائلاً إن كان بإمكان هؤلاء الذين عبثوا بحياته وكرامته أن يوجهوا إليه رصاصة عبر شاشة الكمبيوتر.

طيور نورس ناصعة البياض

لا يمكنني خداع نفسي، فأنا لم أذهب إلى البحر للسباحة ولا هرباً من الحر الرطب الخانق، بل لأنني آمنتُ أنْ لم يبقَ لي من هروب من حرقة الألم الذي يئنّ بداخلي طوال الوقت إلا أن أرمي نفسي في البحر... بالتأكيد سيبلسم البحر جروح روحي؛ سيطفئ جذوة الألم المتوهجة منذ أشهر كجمرة أطمرها بوشاح اللامبالاة.

الشاطىء الأزرق؛ شاطىء اللاذقية الجميل، لاحت اللافتة وأنا في التاكسي، أرمق الطريق المقطع بحواجز إسمنتية بأسى. اللافتات المعلقة في الفراغ والملصقة على الجدران مع وجوه مبتسمة تذوب في دموعي التي لا أعرف لمَ تشاكسني دوماً وتحرجني؟ زجرتُ نفسي: ما بك يا امرأة، ألا يحلو لَك البكاء إلا في التاكسي؟...

تأملت لافتة لفتاةٍ مبتسمة وعبارة: إذا سألتوني ما طائفتي، طائفتي سوريا...

تحفّ بهذه اللافتة صور شهداء، مهما اختلفت أسماؤهم، فعبارة الشهيد البطل توحّدهم. من حسن الحظ أن نظارتي الشمسية سوداء وكبيرة، تلقفت الدفعة الأولى من دموعي وأنا أمسح وجوه الشهداء

بنظرة. تفتق سؤال محرج في خيالي كما لو أنّ فقاعة انبثقت من فراغ روحي: كيف سنتعامل مع الموت؟! كيف سأتعامل مع شعب ذاهب إلى الشهادة؟ شباب بعمر الورود هم جنود، ومنشقين، وثوار، ومندسين؛ هم كل شيء ما عدا إنسان... أنا أيضاً لم أعد إنسانة؛ لستُ سوى مجرد كائن مصدوم. الموت حولي أحدث في روحي صدمة مروعة، كما لو أن الموت هو القدر المحتوم لأحبائي...

تلقفت دموعي بمناديل ورقية. اعتقد السائق أنني أمسح عرقي فقال: الحر لا يُطاق... قلت له: أجل... كان يضع منشفة قذرة على كتفه يمسح بها وجهه متأففاً... تأملت وجهه في المرآة الأمامية للسيارة: يا للبؤس الذي تعكسه ملامحه!... وعند ترجّلي من التاكسي وجدتني أمام صورة كبيرة للرئيس كُتب تحتها بخط غليظ وباللون الأحمر: إلى سيد الوطن، من نصر إلى نصر...

تحوّلت تلك العبارة الرشيقة "من نصر إلى نصر" إلى مطر من الشهداء...

لم أستطع أن أمنع شهقة دهشة وأنا أرى المدى الأزرق المترقرق بأشعة الشمس، والرمل الناعم الذهبي يغويني أن أطمر جسدي فيه. كنتُ أعرف أنني أقف على شفا الانهيار، لكنني أتظاهر أنني متماسكة...

كنت الصخرة الصابرة التي تمتصّ وتمتصّ، عارفةً أن لحظة الانفجار قد تكون قريبة جداً... لكنني كنتُ واثقة أنني لن أنهار لسبب وحيد هو أنني كنت أحس أن روحي متوحدة مع أرواح المتألمين والمظلومين والشهداء، ومشروع الشهداء...

كنتُ أستمدّ قوة هائلة في روحي هي قوة حب عنيد يأخذ زخمه

من الإحساس بالعدالة والحق والحرية... كنتُ أؤمن أن الحرية هي قدرنا المحتوم، وليس الموت... وكنتُ أتحول إلى محاربة شرسة للدفاع عن آلاف الشبان الذين يزجّون بهم إلى الموت بعد أن يزرعوا في عقولهم إيديولوجيات هدامة...

اقتربت من البحر، نظرتُ إليه بوله. وجدتني أصرخ صراخاً أخرساً: لا أصدق، لا أصدق أن هناك بؤراً للموت في وطني الحبيب... لا أصدق، بالتأكيد كل الإعلام خاطىء. انظروا إلى البحر والمدى اللامحدود؛ انظروا إلى العناق الحميم بين البحر والسماء...

الشمس عمودية وحارقة، تصبّ أشعتها على الأحياء والأموات، على الأبرار والأشرار. ياه! ثمة رائحة في الهواء تتحدى رائحة الموت؛ ثمة رائحة تدوّخني، هي مزيج من رائحة اليانسون وزهر العسل؛ رائحة لا يمكن أن تكون وهماً أو هلوسة، وإلا كيف فجّرت تلك الرائحة كل هذا التوق في روحي. أغمض عيني وأهمس لنفسي: إنها رائحة الهوى... هوى وطن، وهوى إخوتي في وطن. أخذتُ أغبّ الهواء، وأنا أشعر أنني أصطاد ذرات الهوى من الهواء. رميتُ نفسي في البحر فمازحني قائلاً: دموعك أكثر ملوحةً من مائي...

وجدتني أقول له: تزداد ملوحة الدموع كلما ازداد الحزن...

مسح جسدي بدفقات من مائه الدافئ. وجدتني أهذي وأقول غير عارفة هل أحدث نفسي أم أحدث البحر: لم آتِ لأسبح بل أتيت لتذوب آلامي في الماء، ولتنطفئ جمرة الألم في روحي.

أغمضتُ عيني وأنا مستلقية على ظهري، وشعرتُ بخفة رائعة. ابتسمت وأنا أشعر أنني قشّة، تمنيتُ لو كنتُ قشة، لأنها لا تنزف...

حملتني المياه المالحة الدافئة إلى البعيد، أسلمت نفسي كلياً للأزرق الشافي، وأحسستُ أنني أنسحب شيئاً فشيئاً من عالم فاحش الوحشية والقسوة. وحين فتحتُ عيني ذهلتُ من وشاح رمادي كبير يحيط بجسدي. فزعت. يا إلهي! ما هذا؟ ضحك البحر وقال: إنه حزنك الكثيف تسلل من مسامك. ابتسمت وأنا مبهورة بحالتي، ثمة شيء يضيء في روحي، ثمة شعور كان ضائعاً تماماً وتمكنتُ من استعادته، السعادة...

وكطفلة سعيدة أخذت أخبط في الماء. كنتُ أحس بحالة من هياج الفرح كما لو أنني استعدتُ عافيتي النفسية غير المخربة بالموت. لم يعد حرير روحي مثّقباً بالرصاص. أيّ معجزة تحققت واستطاع البحر رأب ثقوب وصدوع روحي، وإطفاء جذوة الألم المشتعلة داخلي...

شعرتُ بقوى لانهائية في روحي، ورغبتُ في أن أسبح حتى ألامس خط المدى؛ حتى أتلاشى في ذلك العناق بين السماء والبحر... صرخت فرحةً باكتشاف أضاء في عقلي كومضة: في ذلك الخط تولد الحرية...

كنتُ أقفز من البهجة مفتتنةً باكتشافي الذي قررت أن أعلن عنه حال عودتي إلى الأرض... أتوغل داخل الماء وأنا أفكر أنني يجب أن أملك شجاعة الحياة... وألا أترك للموت أن يهزمني...

ووجدتني أدندن بأغنية "الحياة حلوة بس نفهمها"، وتحولت الدندنة إلى صراخ: الحياة حلوة... لم أكن أتبين طبيعة مشاعري لكني كنتُ أحس بذلك الزخم الهائل في روحي. ها أنا أقترب من خط المدى؛ من خط عناق البحر مع السماء حيث تولد الحرية، لكن ماذا دهاني؟ لمَ ألهث بتلك الطريقة؟ لا يجب أن أتعب، عيب عليّ أن أتعب... حسناً

لن أوبّخ نفسي، سأرأف بها، سأرتاح قليلاً. استلقيت كالمصلوبة والبحر يحملني برأفة. أغمضت عيني هاربةً من وهج الشمس. لم أعرف ماذا حصل في تلك اللحظة؛ في تلك البرهة القصيرة من الزمن الأشبه برفة جفن، ثمة صراخ أليم، موجع، وأصوات سقوط من علو شاهق. يا إلهي، إنهم يحفون بي! الشباب المذبوحين الذين ألقوا بهم في نهر العاصي... فتحت عيني وحدّقت في وجوههم المحتقنة وعيونهم النازفة، ونافورة الدم المتدفقة من أعناقهم المذبوحة. اصطبغ الأزرق بالأحمر. كانوا يبرطمون بكلام لا أفهمه، ونظرات عيونهم النازفة تتجاوزني، كأنهم يحدقون في مشهد مروع فاحش القسوة...

ماذا يقولون؟ كيف لا أفهم حرفاً واحداً مما يقولون؟! ولماذا لا ينظرون إليّ؟ بدأوا يتكاثرون، وطفت جثث كثيرة مذبوحة على سطح الماء. لم أصدق ما أرى، بالتأكيد أنا أهذي. صرتُ أحاول أن أقبض على الماء، وتسلطت عليّ هذه الفكرة بجنون، حتى أحسستُ أنني تحوّلت إلى قبضة. لماذا هذا الهوس بالقبض على الماء؟ لكن الماء كان يتسلل من بين أصابعي كوجودي تماماً. كنتُ أنزف وجودي، وهؤلاء ينزفون دماءهم... ولم تعد نظراتهم تتجاوزني، بل انصبّت علي دفعةً واحدة، وصار كلامهم مفهوماً. سألوني بصوت واحد: هل أنت حية أم مذبوحة؟

وحين هممتُ أن أجيب اكتشفت أنني لا أعرف الجواب لسؤالٍ اعتقدتُ أنه بديهي... تخثرت الكلمات في حنجرتي كما تتخثر الدماء في أعناقهم المذبوحة بالساطور أو السيف أو السكين...

تحسستُ عنقي، اكتشفتُ أن فيه ثلماً، وضعتُ سبابتي في الثلم

فأحسستُ بألم الطعنة، لكني لا أذكر متى طُعنت ولا من طعنني...

لكنّ سائلاً شفافاً كالدمع اللزج خرج من ثلم عنقي... تعجبتُ من نزيفي الذي لا لون له. ضجّ الشباب المذبوحون بالضحك، وقالوا: نزيف الروح لا لون له...

لم أستطع أن أحتمل المشهد، لقد رميتُ نفسي في البحر ليداوي جراحي، فهل أراد أن ينتقم مني؟... كيف وصل شهداء نهر العاصي إلى البحر؟...

سأعود إلى الشاطىء، وسأرتمي على الرمل الناعم كالحرير، لعل الرمل أكثر رحمةً من البحر... وهنت قواي، وخفتُ أن أغرق، لكنني غذيتُ في نفسي التوق للوصول إلى بر الأمان... إلى الشاطىء... ثمة سرطان ينهش أحشائي، أحس به تماماً؛ شعورٌ يشبه الجوع الكافر. شهوةٌ آثمة تفتك بروحي سميتها شهوة العدم. الموت حولي يريد ابتلاعي كما ابتلع الآلاف. شهوة العدم والموت تلاحقني في الماء، فعليّ أن أصل شاطىء الأمان. تهاويت على الرمل وقواي نزفت من مسامي. كنتُ ألهث كأني ألفظ أنفاسي. كان نزيف روحي عديم اللون يتدفق من ثلم في عنقي. ياه كم تشاكسني الذكريات! كيف أنسى متى ذُبحت ومن ذبحني؟! يا لقسوة الشمس! أحسها تجففني، وتُبخّر نسغ الحياة في عروقي. انتظمت أنفاسي وشعرتُ أنني أغفو. عبرت ذهني عبارة "من التراب وإلى التراب نعود"، وتخيّلتُ جسدي يغور في الأرض مطمئناً وسعيداً، متدثراً بالتراب. هل غفوتُ أم انخطفت إلى عالم آخر؟ لأنني حين فتحتُ عيني وهممت أن أقوم لم أستطع، كنتُ مُسمّرة مكاني ويداي وقدماي مكبلتان. شعرتُ بقماش خشن يلفني. لم أعرف من

دثرني بهذا القماش الخشن وأنا غافية فوق الرمل، لكن صوت ضحكات عذبة أشبه بالزقزقة ثقبت أذني، وكمن يتلقى صفعة مدوية تعيده إلى صوابه رأيتهم حولي مدثرين بكفن أبيض. شهقت: إنهم أطفال الحولة! وقبل أن تكتمل شهقتي وعيتُ أنهم أطفال سوريا، هربوا من قراهم ومدنهم وبيوتهم، هاجروا مع أكفانهم إلى البحر...

مشلولةً من الذعر والألم حدّقت في وجوههم الطفولية الجميلة الشاحبة: ثمة حلم واحد يطوف فوق عيونهم نصف المغلقة؛ حلم الطفولة المنتهكة؛ المذبوحة... صرت أئنّ وأنا أهذي، أحبائي، أحبائي...

زجروني: اسكتي، أنت تشوشين الموسيقى الرائعة التي نسمعها...

سألتهم: أيّ موسيقى؟... قالوا: عصافير الجنة تغني لنا...

هممت أن أسألهم فأخرسوني في الحال وقالوا: لا نريد أن نسمع صوتك، لا نريد أن نسمع صوت الكبار...

تركوني مسمّرةً على الرمل، عاجزةً عن الحركة، وتحولت أكفانهم إلى أجنحة وحلقوا كطيور نورس ناصعة البياض تهاجر إلى حيث تتوق أرواحها...

لم أكن واهمة أبداً، ولم يمسّني الجنون، ولم أخشَ أن أفقد صوابي من هول الصدمة، لكني وجدتهم بأم عيني يطيرون باتجاه خط المدى حيث يتعانق البحر والسماء؛ حيث تولد الحرية.

شعرتُ بقبضة قوية تمسكني من معصمي وتقتلعني من مكاني. حدّقت في وجه الغريب. قال لي قلقاً: أنا المنقذ، انتبهتُ أنكِ تتململين في مكانك كأنك على وشك الإغماء، ما كان يجب أن تنهكي نفسك بالسباحة في عز الظهيرة...

قدم لي كأساً من الماء شربته على مهل. وجدتني أكرّر بتعجب وشيءٍ من سخرية: المنقذ! المنقذ!... تركني وعاد إلى صومعته العالية التي بالكاد تتّسع له، وبجانبه ثمة إطار يشبه دواليب السيارة؛ إطار الإنقاذ...

هل ما شربته ماء؟! هل قدّم لي المنقذ ماء الحياة أم ماءً مسموماً؟... أهو منقذ أم قنّاص؟ وهل إطار الإنقاذ إطارٌ لإنقاذ الغرقى أم هو حبل مشنقة؟...

لن أذهب إلى البحر بعد الآن...

وجهان

تشابك الجسدان في عراكٍ ضارٍ كما لو أنهما التحما بصمغ قوي إلى الأبد، و لم يستطع الجمهور المتحلق حول الشابين أن يفصلهما عن بعضهما البعض، كانا يلوّحان بالسكين الحادة التي تسمى الشبرية، التي يحمل كل منهما واحدة منها. ومن المفارقة الغريبة أنهما كانا يلبسان بنطالي جينز ماركة "لورد"، وينتعلان حذائين رياضيين ماركة "أديداس"... وكانت لهما القامة الرشيقة ذاتها والطول نفسه والعمر الذي يقترب من السادسة عشرة، وكانا يطلقان أصوات كالجعير، وكان بالإمكان تمييز بعض الشتائم الفاحشة والتهديدات التي يوجهانها لبعضهما البعض...

كل من حاول الاقتراب من المتعاركين كان يصاب بركلة قوية، أو صراخاً حاداً متوعداً يوجهه له الشابان، إذ بدوا مصرّين على العراك. سالت الدماء غزيرة من الجسدين، وسقطا أرضاً، وكل منهما يطعن الآخر بمديته، إلى أن تمكّن الشرطي الذي استدعاه الناس من إجبارهما على الانفصال عن بعضهما بأن أطلق الرصاص من مسدسه... انفصلا عن بعضهما يلهثان، وحاولا الوقوف، فعجزا، ترنّحا ثم سقطا مجدداً

وسط بركة دمائهما الممتزجة مع بعضها. كان وجهاهما محتقنين وعيناهما رطبتان كأنهما انتهيا من حفلة بكاء...

بركة الدماء على الأرض كانت تكبر، وما هي إلا لحظات حتى حضرت سيارة الإسعاف، ونقل الشابان على حمالتين متجاورتين إلى المستشفى... ووضعا على سريرين متجاورين في قسم الإسعاف بعد أن قُيّد كاحل كلٍّ منهما بسلسلة حديدية إلى السرير، وتحلق حول كلٍّ منهما مجموعة من الممرضات والأطباء المسعفين...

وبين الجريحين وقف الطبيب الشرعي يسأل عن حالة كل منهما... ومدى الأذية التي ألحقها كل شاب بالآخر...

الطبيب المسعف أكّد أن حسان مصاب بطعنة سكين حادة في صدره أدّت إلى انخماص رئته، كما أنه مصاب بطعنة في فخده تسببت في انقطاع شريان رئيسي ونزف غزير.

أما الشاب إياد فقد طعنه صديقه في عينه مباشرة، مما أدى إلى انقلاعها، وسال سائلها على خده، كما أصيب بطعنة في أسفل ظهره تسببت له على الأرجح بشلل نصفي لأن منعكساته شبه معدومة.

نقلا في الوقت ذاته إلى قسم العمليات: بدوا هامدين تماماً، يعانيان من انحطاط بدني شديد، وكانا يبكيان بصمت من الألم والحزي والذهول، ويشعران بالذعر من الإعاقة التي تنتظرهما.

أدخل كلّ منهما غرفة عمليات، ولم يفهما لماذا ارتجف قلبهما في الوقت نفسه، واستدار كل منهما ليرمق الآخر المُسجّى على الحمالة ليخمّن إصابته والأذى الذي لحق به...

في اللحظة ذاتها كانا يتنشقان الغاز المخدّر الذي بدأ يُغيبّهما عن

الواقع... وأذعنا لأوامر طبيب التخدير يأمرهما أن يتنشقا الغاز بعمق. كانا يصارعان هبّات من الذعر واليأس، وهما يحاولان استيعاب ما حصل، وكيف تورطا بهذا الشجار العنيف...

حين أغمض حسان عينيه رأى والده يقترب منه، ببزّته العسكرية والبندقية المعلقة بكتفه. كان والده حزيناً ويتأمل ابنه بأسى، في نظرته عتب وشفقة وحب كبير: لماذا يا بني، لماذا تطعن زميلك بالسكين؟ هل نسيت أنه صديق طفولتك، وأنك طالما لعبت معه في الحارة كرة القدم؟ هل نسيت كيف كنتما تذهبان معاً إلى امتحان الشهادة الإعدادية وكيف ذكّرك ذات يوم أنك نسيت بطاقة الامتحان، فعدت راكضاً إلى البيت لتحضرها، ولولاه لكان امتحان اللغة العربية قد فاتك؟... كيف تطعن زميلك وصديقك يا بني؟...

ينتفض حسان ويرتمي في حضن والده: أبي أبي، كم اشتقت إليك، لكن، لكن يا أبي كيف خرجت من الصورة، أقصد من النعوة. كان حسان يبكي على صدر والده الشهيد، الذي استشهد في بابا عمرو، وليس في فلسطين ولا الجولان... والده الذي تحول إلى ورقة نعي كتب فيها اسمه: الشهيد البطل...

ياه يا أبي، كم اشتقت إليك! سنة كاملة مرّت وأنت بعيد بعيد. قل لي يا أبي: لماذا استشهدت؟ من هم الأعداء الذين كنتَ تحاربهم؟! كيف تتركنا يا أبي، كيف؟ لو تعرف كم يؤلمنا غيابك. آه يا أبي! تهدّمت حياتنا، تهدّمت أرواحنا، ما يهمني أن يكون أبي شهيداً؟ أنا أريدك معي، أريدك معي...

يمسح الشهيد على رأس ابنه براحة من حنان ويقول له: يا بني، أنا

حزين جداً عليك، ما الذي جرى لك حتى تحمل السكين وتطعن زميلك وهو بدوره يطعنك؟! أكاد لا أصدق يا حسان، كيف صرت عنيفاً يا حبيبي. أنت طول عمرك رقيق، لطيف. أتذكر حين أخذتك معي في رحلة صيد العصافير، كيف عدت متورم العينين من البكاء وأنت تقول كيف تقتلون تلك المخلوقات الصغيرة الجميلة، دعوها تطير وتزقزق سعيدة في السماء... كيف أصبحت عنيفاً يا حسان؟...

آه يا أبي، لم أعد أنا نفسي منذ وفاتك، تحوّلت حياتي إلى مأساة. ما معنى أن تتحول من أب، هو عصب حياتنا ومصدر توازننا وفرحنا وإيماننا بالمستقبل، إلى صورة معلقة على جدار، وإلى ورقة نعي؟! هل تعرف أنني لم أعد حسان الذي تعرفه: شاباً سعيداً متفائلاً لديه طموحات وأحلام، بل صرتُ ابن الشهيد.... لو تعرف الغضب الذي ينهش روحي يا أبي منذ استشهادك... والسافل إياد الذي... تلعثم كما لو أن صوته انكسر فجأةً فصمت...

قال الأب الشهيد: ما به إياد، لماذا تقول عنه سافل؟...

أحَسّ بوخزة ألم مفاجئة في صدره وأخذ يحاول أن يغبّ الهواء. لم يكن يعرف معنى انخماص الرئة، لكن الطبيب حاول أن يبسّط له الإصابة قائلاً: الرئة مثل البالون المنفوخ بالهواء، وطعنة السكين أدت لثقب الرئة كما ينثقب البالون، فانخمصت.

تجاهل طعنة الألم وقال: تصوّر يا أبي تلك المفارقة، في اليوم الذي استشهدت فيه مات والد إياد، لكنه مات في المعتقل. يُقال إنه كان يخرج في مظاهرات مضادة للنظام، والبعض يقول إنه اعتقل وهو يخرج من الجامع، وبعد أسبوع من اعتقاله أتاهم نبأ وفاته، و لم يتسلّموا جثته، لكن

سرت إشاعة قوية في الحارة أنّ والد إياد كان في بابا عمرو وأنه انتسب إلى الجيش الحر...

لم نعد بقادرين على أن ننظر في عيون بعضنا يا أبي، كانت تعليقات زملائنا في المدرسة تشحننا بشحنات الكره والغضب، حتى أنّ أحد رفاقنا قال ذات مرة: قد يكون والد حسان ووالد إياد اشتبكا في معركة في بابا عمرو، وقتل كل منهما الآخر...

تصوّر يا أبي بأن هذا الافتراض لاقى قبول، بل استحسان، معظم زملائنا في المدرسة حتى وجدتُ نفسي أنخرط في شجارات كلامية مع إياد حولكما، أقصد حول والدينا الميتين، كما لو أن كل منّا يريد أن يثبت للآخر أنّ والده أكثر شرفاً وشجاعة من والد الآخر...

كنت أصرخ به متباهياً فيما قلبي ينزف: أنا أبي استشهد في سبيل الوطن، أنا ابن أنبل إنسان على الأرض، أنا ابن الشهيد.

فيهزأ بي إياد ويقول: وأنا أبي مجاهد، رجل شجاع يطمح إلى الحرية والعدالة والديمقراطية...

فأقول له مشحوناً بأقوال العديد من زملائي: والدك إرهابي...

فيردّ وقد جحظت عيناه من الكره: والدك شهيد زائف لأنه يقتل أبناء وطنه، والدك قتل أبي...

أحس والد حسان أنه استشهد حقاً في تلك اللحظة، اختنق صوته في حنجرته وعجز عن الكلام...

وآخر ما تناهى إلى سمع حسان صوت هامس: التخدير عميق الآن يمكنكم البدء بالعملية.

في الغرفة المقابلة كان إياد يبكي بعين وحيدة على عينه الأخرى

المنفقعة بطعنة السكين و لم ينتبه أنه بال في ثيابه، إذ أن العصب الذي يغذي نصفه السفلي قد قُطع أيضاً بطعنة السكين من قبل صديقه ابن الشهيد...

كان إياد يبكي بعين واحدة كطفل وهو يسأل الطبيب الجراح: دكتور، هل خسرتُ عيني، هل خسرتها؟...

يربت الطبيب على كتفه ويقول له: لا أخفيك، الإصابة خطيرة، لكن سأعمل جهدي لإنقاذ ما يمكن إنقاذه... المهم الآن أن تتنشق بعمق الغاز المخدر...

أحس حسان بيد دافئة تمسح السائل اللزج المتدفق من عينه المتأذية. ارتعش جسده وصرخ: أبي، أبي...

اقترب الرجل الذي ابتلعته بابا عمرو من ابنه وانحنى وقبّل رأس إياد وقال: يا روح روحي، ماذا فعلت بنفسك؟!

صرخ إياد: أبي، أبي كم اشتقت إليك، لماذا تركتنا يا أبي، لماذا؟

ردّ الأب: هذا قدري يا بني، أردت أن تعيشوا - إخوتك وأنت - حياةً أفضل من حياتي، أردت لكم العيش بكرامة وحرية وعدالة وعزة نفس.

بكى إياد بحرقة من عينه السليمة وقال: لا نريد، لا نريد أية حياة بعيداً عنك... آه يا أبي! لن يلتئم جرحنا بغيابك يا أبي. أختي وفاء، وفاء التي كنت تدللها أكثر منا جميعاً، أتعرف ما أصابها؟ تصوّر، لم تبكِ عليك، لكنها تظل نائمة، وما عادت تتكلم، كل وقتها تقضيه في فراشها حتى أنني ضربتها ذات يوم ونزعت عنها غطاء السرير، فصرخت أعد إلي كفني... إنها تريد أن تموت لتكون قريبة منك يا أبي...

– لكن يا حبيبي، لا أريدكم أن تنهاروا لأنني مت، منذ متى وأنت تحمل سلاحاً؟ سكيناً يا إياد؟ وتطعن بها صديق طفولتك...

– لم يعد صديقي يا أبي، لأنه يعتبرك إرهابياً ويتباهى أمامي أن والده شهيد و...

يقاطعه والده وصوته غارق في الحزن والهزيمة: لا يا حبيبي، لا يا إياد، لا تتنكر لأصدقاء طفولتك، أنسيت كم كان حسان يحبك، فيتذكر عيد ميلادك قبل موعده بأيام، ويحضر لك مفاجآت ويقدم لك أحلى هدية؟! أنسيت كم كان يتحمس ليساعدك في حل مسائل الرياضيات، فتصرخ به لا تتعب نفسك أنا لا أطيق الرياضيات، فيرجوك ويغويك أن تسمح له بأن يشرح لك المسائل الصعبة؟...

يا إياد، ماذا فعلت بصديقك؟ كيف كيف تؤذيان بعضكما بتلك الطريقة...

بكى إياد: يا أبي، أنتَ لست إرهابياً، ووالده ليس شهيداً يتباهى به وبأنه أشرف منك، والده قتلك، والده مجرم، والده لم يقتل جندياً إسرائيلياً بل قتلك...

يرتعش صوت الأب: لا يا حبيبي، أرجوك لا تفكر بهذه الطريقة، أنا لا أعرف من قتلني وهو لا يعرف من قتله... يصمت للحظات. اسمع، كلانا يعرف من القاتل الحقيقي، لكن ألا ترى أننا أصدقاء، كلانا متنا... كلانا خسرنا أولادنا وأسرتنا وحياتنا...

أنا وهو ميتان يا إياد... وهناك في عالم الأموات نجلس بجانب بعضنا ونحكي عنكم... يا إياد، لقد آمنتُ أنني أعمل لتأمين حياة كريمة وحرة لك يا حبيبي، أردتك إنساناً سعيداً متوازناً مُحباً، وليس مُجرماً...

– أبي، أبي، سأقول لك شيئاً...

انطفأ صوت إياد وبدأ الطبيب الجراح في خياطة عينه الممزقة...

في رواق جناح العمليات المضاء بنور أزرق شاحب... التقى شبحان محنيا الظهر، والد إياد ووالد حسان... كانا مهزومين مهدّمي الروح... توقف الشهيد ونظر إلى الشهيد الآخر، كانا والدين خاسرين، وشابين قُصف عمرهما رغماً عنهما. كانت نظرتهما إلى بعضهما البعض تعكس ذهولاً لا متناهياً؛ ذهولاً يفوق بما لا يقاس أقسى درجات الألم.

أم كفاح

أخيراً، وقفتْ منتصبة دون أن تترنح كما توقعتْ... وقفت منتصبة كالحقيقة، هذا ما قالته لنفسها، ثم ابتسمت بمرارة ساخرة من نفسها على تلك العبارة، لكنها شعرت برغبة ضئيلة في إطراء نفسها إذ أعجبتها تلك الصورة، الحقيقة منتصبة...

بعد شهر بتمامه، وبأيامه الثلاثين التي قضتها متلاشية فوق أريكة مهترئة كروحها، تمكنت من الوقوف دون مساعدة أحد. كان شعرها ملبداً، إذ لم تستحم منذ شهر، منذ اختفاء ابنها، حبيب قلبها كما تسميه دوماً، ابن العشرين ربيعاً، المُجند الذي التحق بالجيش بسبب الفقر، كان عليه أن يحارب العصابات الإرهابية التي تسرح وتمرح في كل سوريا، عليه أن يقوم بواجبه الوطني في مكافحة الإرهابيين وقتلهم، هذا ما كان يقوله بحماسة فيما حزن طاغ يشع من عينيه كما لو أنه يحدق في ورقة نعيه، لكنها كانت تسمع هذا الكلام وأسى عظيم لا يمكنها وصفه يطفح من قلبها...

مشت بخطوات ثابتة باتجاه المطبخ. شربت ماءً من الحنفية مباشرة. غسلت وجهها وجففته بكم فستانها المهترىء الذي أعطتها إياه سيدة

تعمل عندها خادمة منذ ربع قرن...

وبكسرة من المرآة المعلقة على الجدار تأملت وجهها، لأول مرة تحاول أن تتعرف بجدية على نفسها، ياه كم بدا وجهها مُجرّباً لكل أنواع الأحزان في العالم! حدقت في عينيها المنعكستين في المرآة، وفزعت من الفراغ الكبير لذاتها، فراغ ذاتها المنعكس في نظرتها المنطفئة، رطبت شفتاها بلسانها وهزت رأسها مؤكدة حقيقة وجودها، ما الحقيقة سوى أنها إنسانة هالكة، كانت رائحة الهلاك تفوح منها بقوة... أحست بتقلصات الجوع في أحشائها لكنها لم تملك الهمة لتأكل، كانت قد اتخذت قرارها النابع من كيانها كله، هذه المرة لا مفر، ستنفذ ما تاقت إليه منذ سنوات طويلة، ستضع حداً لحياتها التي ما هي إلا سلسلة من الاهانات... ابتسمت لصورتها في المرآة، كانت تودّع ذاتها، تودّع الخادمة التي كانتها طوال عمرها...

ربع قرن وهي تعمل خادمة في بيوت الأثرياء، تحمل السجاد الثقيل على ظهرها، تدقه بعصا وتمسحه بالكاز، تنظف الثريات والبلاط والجدران والأثاث بحماسة ومحبة، تتجاهل شعور المهانة وهي تأكل بقايا الطعام. وتعود عصراً إلى أسرتها حطام امرأة، تدلق النقود على الطاولة أمامهم، تبتلع بضعة لقمات وتغفو كالقتيلة لتستأنف فجر اليوم التالي عملها...

هذه المرة ستضع حداً لهذا العيش الذليل. قطبت غاضبة، وانطبقت شفتاها بقوة على قرار لا رجعة فيه: ستقتل نفسها، رغبة دفينة لطالما دغدغتها وكانت تطردها لأنها من وسوسة الشيطان، لكنها في هذا الفجر الموحش قالت لله كما لو أنها تتحدث إلى

صديق: سوف تعذرني وتغفر لي...

عليها أن تنجو من ذاتها، من ذلك الفراغ الموحش الذي يملؤها، أجل المهم أن تنجو من ذاتها لأنها لم تعد قادرة أن تنتظر، ولا أن تواجه خيالات دماغها التي يفرزها باستمرار... سترمي نفسها أمام أية شاحنة أو سيارة، وسيعتقد الجميع أنها توفيت بحادث سير... سيدفن سرها معها، وحدها والذي خلقها يعرفان أنها قتلت نفسها...

منذ شهر اختفى حبيب قلبها المجند، الذي أعطوه بندقية ليحارب الإرهابيين، وبعضهم يقول إنهم الثوار، بالنسبة إليها لا فرق، المهم أن ابنها يحمل بندقية ويتلقى أوامر لا يمكنه عصيانها... تنقّل من الحفة إلى إدلب ثم إلى غوطة دمشق. كان يتصل بها كل يوم تقريباً. تحسه مخنوقاً، ضجراً، وتحسه عاجزاً عن الإفصاح عما بنفسه. ذات مرة سألته إن كان منزعجاً فصرخ بها: اخرسي، أهذا سؤال؟ المكالمات مراقبة.

لم تعد تسأله أي سؤال، بل تكتفي بسماع صوته وإبلاغه أنها تعبده وتشتاق إليه... وأنها تشتري له من وقت لآخر قميصاً أو حذاء...

غاب صوته وما عاد يتصل، وبعد أيام شاهدت مذعورة على شاشة التلفاز مجموعة من الجنود مذبوحين ومكومين كضحايا العيد، كالخراف المحللة للذبح من أجل أن يأكلها الإنسان... كان ابنها منتمياً إلى تلك المجموعة، لكن لم يرَ أحد وجهه، وحين اتصلت ابنتها برئيسه قال لها إن الوضع متأزم جداً وإنه لا يستطيع أن يعطيها جواباً دقيقاً، فالبلد تمر في أزمة خطيرة، لكنها رجته أن يتأكد إن كان كفاح بين الجنود المذبوحين بعد أن تعرضوا إلى كمين من قبل جماعة إرهابية...

طلبت أم كفاح من ابن إحدى السيدات اللاتي تخدم عندها أن

يسجّل لها المشهد، صور الجنود المذبوحين، وصارت تتأمل وجوههم واحداً واحداً، شاعرةً أنها تغسل خثرات الدم عن وجوههم النضرة بدموعها، وتبحلق في ملامحهم، لم يكن ابنها بينهم... لكنها اكتشفت أنهم متشابهون على نحو غريب: كلهم صامتون ومسحوقون ومهزومون ومذعورون...

ومن شدة تحديقها في الوجه اكتشفت أنّ الذعر الذي تعكسه وجوههم ليس ذعر لحظة الذبح بل قبلها... آمنت أنهم مروعون ومذعورون منذ لحظة الولادة...

منذ اختفاء ابنها وهي منطرحة على الأريكة مشلولة تصارع موتاً كالمحيط، ويأساً ساحقاً لم يترك بذرة أمل إلا وهرسها، وبدا إحساس غريب يتسلل إليها بأنه – حبيب قلبها – لم يعد موجوداً. حاول بعضهم مؤاساتها بأنه قد يكون هارباً... لكنه لو هرب أما كان اتصل بها... صارت محنتها القاسية النوم، لم تتمكن من النوم، رغم المنومات ومنقوع الأعشاب الذي تبرعت جاراتها البائسات في تقديمه لها كل مساء. كان النوم ليلاً يفزعها فزعاً رهيباً، ثم اكتشفت أن هلعها ليس تجاه الظلام في الخارج، بل تجاه ظلمة أعماقها، وبدت لها حياتها كلها بلا أفق، مجرد اجترار أبدي لأيام رتيبة تموت فيها من التعب والعمل في خدمة الأثرياء وتنظيف بيوتهم مقابل أن تؤمّن طعام أولادها... حياتها بلا أفق، يباس يدبّ شيئاً فشيئاً في روحها ويحيلها كالحطب اليابس.

أين هو؟ لعله مذبوح ومكوّم تحت جثث زملائه المذبوحين، لعل الكاميرا لم تكشفه لأنهم كومة من لحم مذبوح، من أضاحي الوطن...

كانت تعيش تحت هاجس الموت: هل حاول الهروب ففشل،

فأعدموه؟... تطن في أذنيها عبارة إعدامات ميدانية... حين سألت صهرها ما معنى هذه العبارة قال لها: هناك قانون في الجندية، كل مجند يحاول الفرار يُعدم...

يومها خفق قلبها بقوة وتساءلت: طيب ألا يحق للإنسان أن يكون جباناً، ألا يحق لشاب أن يرفض حمل السلاح!

لم تفهم لماذا ضحك صهرها من سذاجتها، وأشعرها أنها ضئيلة وتافهة... منذ اختفائه صارت تعيش محبوسة الأنفاس، وقد انطفأ ذلك البصيص الخافت من الأمل الذي لطالما اجتهدت أن تبقيه ملتمعاً في قلبها المتعب. وحين كانت تغفو بعد عراك شرس مع الأرق وشياطين روحها المعذبة، والصورة الوحيدة المتبقية في ذاكرتها، صور المجندين المذبوحين الذين صارت تشعر أنهم جميعاً أولادها، كانت تحس في وحشة الفجر وهي تفتح عينيها أن ثمّة روحاً تغفو بجانب روحها. لم تكن واهمة أبداً. كانت تمد يدها لتلامس الفراغ وتمسح خد الهواء براحة من حنان. كانت تشعر أنها تلمسه وأنه قابل للمس تماماً كما كانت تلمس وجهه الجميل مُفتتنة من تناسق قسماته حين كان طفلاً...

شملت البيت البائس بنظرة وداع. لم تكن تحس بأي حنين ولا ألفة مع المكان، كما لو أنها لم تعش في هذا البيت ثلاثين عاماً، ومن الباب الموارب رأتهم نائمين، ابنتها وطفليها على سرير عريض وزوج ابنتها على فرشة صغيرة على الأرض، وفي الغرفة الضيقة المفردة والمطلة على فسحة صغيرة، كان زوجها العاطل عن العمل يغفو مصدراً شخيره المعتاد...

تجمدت نظرتها على أجسادهم، كانت مشاعر عنيفة تعصف

بداخلها لكنها لم تكن تعرف طبيعة تلك المشاعر، مشكلتها الكبرى التي طالما أرقتها أنها كانت عاجزة عن شرح ما بنفسها... كانت تحس بإعاقة حقيقية في ترجمة مشاعرها إلى كلمات... وتعزو السبب إلى أنها أمية، لم تتعلم القراءة ولا الكتابة...

قبل أن تستدير على رؤوس أصابعها محاذرة أن توقظهم، وقبل أن تغلق الباب بحذر، استدارت وتأملتهم بنظرة بدت لها أبدية، كما لو أن كل عيشها وكل حقيقتها تجسدت في تلك النظرة. فكرت أن كل ذكرياتها الحلوة معهم، أو التي أجبرت نفسها أن تؤمن أنها ذكريات جميلة، كل تلك الذكريات تومض الآن ببريق الحزن ... ستعذرونني، ستعتقدون أن شاحنة قد صدمتني ومت، هذا أفضل لي ولكم، إذ لم أعد مُنتجة، لقد عُطبت، لم أعد قادرة على أن أعطيكم مالاً...

اعذروني، ماعاد العيش سوى لهو وعبث مجنون... عليّ أن أنجو من ذاتي. مشت كما كانت تمشي كل صباح، في وحشة الفجر، متجاهلة أوجاع مفاصلها وتعبها المزمن، بانتظار الباص المهترىء الذي تنحشر فيه وسط أجساد كادحين مثلها... متجاهلة سؤالاً لئيماً عن معنى حياتها؛ حياة الكدح الأبدي مقابل لقمة العيش... هل كانت سعيدة حقاً بحياة الكدح؟ هل حمار الطاحون سعيد؟! لكنه حيوان وهي إنسانة، ترى هل شعرت بإنسانيتها يوماً؟!

على الجانب الأيمن من الطريق تمر شاحنات عملاقة، سترمي بنفسها أمام شاحنة وترتاح من حياة، عيب أن تسمى حياة، سترتاح من مصارعة الموت، ومن التحديق في صورة كومة من المجندين المذبوحين كضحايا العيد، وقد يكون ابنها مكوَّماً بينهم، قد تكون أجسادهم فوق جسده؟

وقد لا يكون بينهم، قد يكون قد حاول الفرار، فأعدم ميدانياً كخائن! من المسؤول عن موت هؤلاء المجندين؟

من المسؤول عن موت آلاف آلاف من المجندين، وغير المجندين، من السوريين؟ من يدفع بالشباب لحمل البنادق وامتطاء الدبابات والتحليق بالطائرات؟ من يصمم دمى للأطفال تكاد لا تختلف عن البوارید الحقيقية التي تطلق الرصاص الحي للقتل، لقتل الإنسان؟! لم يعد العيش عيشاً في سوريا القتل المجنون، في سوريا الذبح، صار العيش لهواً سعيداً للموت، وعبثاً مجنوناً، وهي ستضع حداً لهذا اللهو، لم تعد قادرة على أن تعيش تحت مظلة صورة قصفت آخر شعاع للأمل في روحها، صورة المجندين المذبوحين...

هاهي الشاحنة العملاقة تقترب. خفق قلبها في موجات من النشوة. كانت عارفة أنها بعد لحظات قليلة سوف تنجو من روحها، من سرطان ينهش في روحها طوال الوقت؛ كانت تعرف أنها حال تخلصها من جسد الخادمة الذليلة ستحلق عالياً بعيدة عن جحيم الموت، وأنه سيكون بانتظارها، دون بندقية ولا بذلة المجند، وسيكون قد غسل عنقه المذبوح من الدم... وسيعانقها ويضمها كما يحصل تماماً عند كل فجر، حين تشعر أن روحه تغفو قرب روحها فتمد أصابعها في الفراغ وتداعب خده، خدٌ من هواء...

أضاحي العيد

يا لأناقة هذا السجن! كم هو فسيح، البلاط من الرخام الأبيض موشح بعروق باهتة رمادية، والجدران ناصعة البياض مزينة بأجمل اللوحات لأشهر الرسامين، تحف ثمينة متناثرة في الصالون وغرفة الطعام حيث لا حواجز بينها، ثلاث غرف للنوم أنيقة معطّرة بعطر البنفسج، يا لترف هذا السجن الجميل الذي تعمّده أشعة الشمس بنورها كل صباح، الشمس ذاتها التي ينجح بعضٌ من أشعتها بالتسلل إلى المُعتقل حيث تتلاصق الأجساد وقد انعدمت كلياً المسافة بينها، تتسلل بعض الأشعة إلى المعتقل كما يتسلل النازحون الهاربون من القصف البري والجوي إلى الحدود، حاملين أطفالهم أو جثث أطفالهم، آملين أن ينجوا بحياتهم، حياتهم فقط، فكل ما يملكونه صار حطاماً وأنقاضاً...

أشتم الشمس، ما عاد لها تأثير عليّ، فاليأس يغمرني من رأسي حتى أخمص قدمي ويحوّلني إلى كائن مشلول، لا تتمكن أشعة الشمس من اختراق طبقة اليأس الكتيمة التي نمت على جلدي كالحراشف منذ سنتين، بل منذ سنوات، منذ لحظة وعيي أنني إنسانة...المكان فسيح وأنيق ومعمّد بالنور ومعطّر بعطر البنفسج الذي يدوخني لعذوبته، لكن

جلدي ملتهب بحرارة هؤلاء المعتقلين المرصوصين المتلاصقين، وماعاد من فرق بين ذراع وذراع، وبين فخذ وفخذ، وبين مؤخرة ومؤخرة، وبين دموع ودموع، تبكي عينان فينزلق الدمع على وجنتي معتقل آخر، أتململ في المكان الفسيح، أتململ محاولة فصل جسدي عن أجساد هؤلاء، يا للرائحة الخانقة، رائحة قطيع متخمر بالعرق والدموع والدم وشح الهواء والقيء... كم أتوحد معهم، فقد أنستنا القسوة أننا بشر، كائن حي خلق على صورة الله ومثاله... لقد أعاد الجلاد خلقنا، نحتتنا يد القسوة التي لا تعرف حدوداً، حولتنا إلى أقزام وبهاليل وصعاليك، رمتنا في أقبية الاعتقال حيث يستباح لحمنا، وحيث يتحول الإبداع إلى ابتكار أشكال لانهائية للقسوة...

عُطب عقلي تماماً، حين أحضرت مرآتين ووضعتهما مقابل بعضهما البعض، ووقفت بينهما لأرى الانعكاس اللانهائي لصورتي، لكن المعجزة أن صورتي تتجلى بصور آلاف المعتقلين يقفون معي بين المرآتين... أنغمس في الألم، أعتقد أنني حين أحضّر فطوراً شهياً وآكل فإنني أستعيد شيئاً من إنسانيتي. أحاول باستماته أن أتذكر أنني إنسانة، أمضغ الطعام اللذيذ الصحي الذي ستتحول فيتاميناته ومعادنه إلى مغذيات لألمي ويأسي، أرى عشرات الأيدي تمتد إلى قصعة قذرة فيها القليل القليل من المربى الفاسد، برشاقة بديعة تلامس قطعة الخبز اليابس المربى، ثم تكورها يد المُعتقل وتدسها في فمه، يختلط طعم المربى بطعم الدم المتخثر الذي تكوم في اللثة أو باطن الخد أثر ركلات من أحذية السجان...

تعكس المرآة نظرتي وأنا آكل، شاعرةً بطعم دم متخثر في فمي، تعكس

المرآة صورتي مذهولةً، أكثر مما تعكس ألماً، صورة الذهول أصعب بما لا يقاس من صورة الألم، الذهول يعني القدرة التنبؤية على رؤية الدمار في كل شيء... صرتُ خرقاء، أخجل من عاداتي الجديدة، إذ أضع أصبعين على معصم يدي لأحس بنبضي، العلامة الوحيدة التي تؤكد لي أنني مازلت حية، مازلتُ كياناً حياً، إنما ليس إنسانياً على الإطلاق...

كل شيء أمسكه يسقط على الأرض. كم تغضبني تلك الصفة. هل صرتُ خرقاء حقاً؟ ينزلق صحن المربى على الأرض ويتلطخ الرخام اللماع ببقعة حمراء كبيرة من مربى العنب الفاخر، أهمّ بمسحها لكنني أجدني أقرفص بجانبه، المعتقل الذي تقيّأ قيئاً حامضاً لطعام فاسد قدّموه له في المعتقل، تقيأ على رفاقه قبل أن يستقر قيئُه على الأرض أخيراً. الأجساد المتلاصقة المتلاحمة صرخت تنادي السجان: افتح الباب رجاءً، افتح باب الزنزانة كي نمسح القيء... يفتح السجان الباب، يرمق المعتقلين باحتقار، ويسأل بسخرية ولامبالاة: من الذي تقيأ؟ يشيرون إلى الشاب المريض الذي تنفتح قرحة كبيرة متوذمة في كتفه، قرحة تنزّ قيحاً دموياً متروكة بلا علاج، إثر حفلة تعذيب... يأمره السجان أن يمسح القيء بيده ثم يمرّغ القيء على رأسه. بصعوبة يتمكن من القرفصة، بصعوبة ينزلق بين الأجساد التي ترصّه بينها، ويمسح القيء ويمرّغ شعره بالسائل النتن الحامضي، ويعيد العملية مراراً حتى تُزال آخر نقطة قيء عن البلاط...

أقرفص على أربع وأبدأ بلعق المربى ثم أتراجع، فأمسح به شعري وأتمنى لو تكتسحني مئات الدبابير وتعقصني عقصات مميتة لأرتاح...

سجني الفسيح الجميل المترف يختنق بهم، أجسادهم تلتصق بي

وروائحهم تخنقني، أترنح معهم في المكان الضيق المقرف، نتحول إلى جسد واحد ينوس شمالاً ويميناً، نترنح بحركة انسجامية بديعة، لكن تتقابل عيوننا التائهة المتعبة في نظرة غامضة مذهولة، هل نترنح على شفير الحياة أم على شفير الموت؟!

لا شيء يساعدني في تهدئة روحي، لا شيء يساعدني على التحرر من الإحساس المُلحّ بالخجل من نفسي إلى حدّ البكاء قرفاً من صمتي، ومن تلك الأساليب المواربة في الكلام...

كيف تحولت حياتنا إلى عار، نحسه كل لحظة، مع كل نفَس، مع كل شهيق وزفير... التقيته البارحة، صديقي المثقف الإنساني، الطبيب، كم بدا نحيلاً، فقد بضعة كيلوغرامات من وزنه رغم أن مدة اعتقاله لم تتجاوز عشرة أيام، كان مرآتي، مرآة روحي... حين كنتُ أنظر إليه وأصغي بكل حواسي إلى كلامه كنتُ أشعر أنني أستكشف روحي وأغوص في عتمات قلبي الذي تحوّل إلى دُمّل... قال لي إن أكثر ما عذّبه في الاعتقال ما شاهده من عذابات وحشية الآخرين، إخوته في الإنسانية، إخوته السوريين.

حدثني عن رجل مشلول بسبب التعذيب، حدثني عن الإهانات والشتائم والضرب المتواصل، بلا سبب، وعن ساعات الركوع الطويلة، واليدان مقيدان خلف الظهر بشريط مطاطي، لا يسمح بأقل حركة للرسغين... كنتُ أحس بالمهانة وكأنني قزمة وحشرة مع كل كلمة يقولها، كنا في قبضة يد تمتلكنا وتستبيحنا، وتلتقطنا على الحدود كما نلتقط ذبابة من جناحيها، ونهرسها أو لا نهرسها، نحبسها أو لا نحبسها...

كنت واحدة من هؤلاء اللذين قضوا أشهراً في زنزانة، أجسادهم متلاصقة وأبخرة العفن تفوح منهم، وقد نسوا أنهم بشر، نسوا الكلام، فصارت أصواتهم همهمة وبرطمة...

عليّ أن أنجو من نفسي بأية طريقة. أصعب أنواع الألم في العالم أن يتعذب الإنسان بسبب روحه. دخلت الحمام ورميتُ ملابسي أرضاً حتى صرته، رأيت ذراعي متوذمة، والجرح البليغ الذي أحدثه الجلاد في ذراعي ينزّ قيحاً ودماً، والأسلاك المعدنية التي جُبر بها، كسر عظم فخذي ينز منها الصدأ والقيح، وآلام لا تطاق تجعلنا – هو وأنا – نتكوم على الأرض نعوي من القسوة، من تلك الأشكال اللانهائية للقسوة... كان أخي وجاري وتوأم روحي، في المعتقل، لكنني استحضرته إلى فضائي الموحش، أردت أن أهديه قطعة صابون كي يغتسل، فهو لم يغتسل منذ أشهر، فالصابون رفاهية، لكن ما أن أمسكت قطعة الصابون حتى تحولت إلى شظية اخترقت راحة يدي وقطعت أعصابي فانسكب دمي على الأرض، وتمدّد وانتشر حتى تماهى مع دمائهم، هؤلاء البعيدين القريبين إليّ كشغاف قلبي...

لن أستحم، سأتوحد معهم في خزي الإنسانية جمعاء...

سأترك روائح جسدي النتنة كعلامة وكشاهد على نتانتهم المقرفة وفساد أخلاقهم.

هل يتطلب الانتحار شجاعة؟ ينبثق هذا السؤال المستفز من عقلي ويجعلني أغمض عيني إعياءً وأنا أغوص في السؤال المتحدي... هل من الشجاعة أن أوقف حياة الذل والعار في لحظة، وأعبر إلى عالم آخر، أقصد أنزح إلى عالم آخر كآلاف النازحين الذين هُجِّروا من بيوتهم

وأحيائهم التي حوّلها القصف إلى أنقاض... هل الحياد هو مجرد البقاء على قيد الحياة؟!

أليست قمة مأساوية الوجود الإنساني والبشري أن تكون الحياة هي مجرد تراكم رقمي لتعاقب الليل والنهار؟...

أنا مرآته أو هو مرآتي، أنا مرآتهم وهم مرآتي، لا فرق كلنا سوريون، كلنا يتفرج علينا العالم ويستنكر ويشجب ويدين ما يجري لنا، كلنا سوريون ننزف وننزح ونعتقل، يا لروعة حرف النون! يالمتعة اللهو باللغة!... أكتب: نشجب، نستنكر، ندين.

وتحتها مباشرةً ننزف، ننزح، نُعتقل.

الذي يقصف بالطائرات سوري، والذي يقتل سوري، والذي يعتقَل سوري، والمُعتقل سوري، والجلاد سوري، والضحية سوري، والنازح سوري، والشهيد سوري، والجيش النظامي سوري، والجيش الحر أو بعضٌ منه سوري... وأغنية "أنا سوري آه يا نيالي" تجعلني أنطوي من الضحك الهستيري، والعار سوري، واليأس سوري، والانهيار سوري... وتصحّر القلوب سوري...

والمطبّلون والمزمّرون في الفضائيات من أجل جمع الأضاحي من أجل السوريين، أقول لهم: لا داعي، لا داعي، فالأضاحي السخيّة هي السوريين، ألسنا نحن أضاحي العيد...

أترنّح بجانبه في السيارة، معصوب العينين، أجلس على الكرسي ذاته الذي يجلس عليه، أقدّر كما قدّر تماماً أن عدد المحققين ثلاثة، يتهمونه بالخيانة، يتهمونني بالخيانة، لا يسمحون له أو لي بأن نعلق أو نسأل: ما المطلوب منا؟ ما شكل الشخصية التي فصّلتموها لنا؟...

لا يهمني أن السوري يستجدي الطعام والشراب والمال، صار يستجدي الحياة، أستجدي الحياة كي ترأف بالسوريين، كي لا يفقدوا عقولهم حيال كل هذا العذاب الذي يضيق به قلب إله...

أستجدي الحياة كي تعيد إلى السوري ذاكرته أنه إنسان، وليس شظية من إنسان أمعنت آلات القتل في قتله.

حبيبي اللكزوتان

علب الدواء الرحيم مكدسة في درجه. يمازحها ويخاطبها كصديق، فاتحاً لها قلبه ليبوح بمكنوناته ويؤكد للحبوب الصغيرة أنها أكثر رحمة من كل البشر حوله، حتى من الأقرباء والأصدقاء والأولاد والأحفاد...

ليس في حياته من أولويات أكثر أهمية من أن يخزّن قدر استطاعته دواء اللكزوتان الذي سماه دواء الرحمة الذي لولاه لانهار وربما انتحر؛ دواء الرحمة والحنان الذي لم يخذله أبداً أبداً، بينما خذله البشر: حبة صغيرة لونها أبيض تهبه ذراتها وتلاحق منابع القهر والألم في روحه وتقضي عليها، حبة صغيرة تخزن حُباً هائلاً في قلبها. أجل، إنه يحس أن لحبة الدواء قلب، وليس عبثاً أن يكون اشتقاق كلمة حَبة من الحب، لعل الكثيرين قبله فكروا أن كلمة حَبة مشتقة من حب.

مجرد حبة دواء صغيرة ترمم روحه الممزقة من الألم، تعفيه أن يشحذ الحنان والحب من بشر تصحّرت مشاعرهم وجفّت... كان يعيش مُروعاً بصمتٍ من أنانية المحيطين به، وفقدان إحساسهم بما يكابد، فيقضي ساعاتٍ مثاراً ومنهمكاً ليعرف ما سبب تصلب العلاقات بين الناس، وكيف صارت عيونهم زجاجية لا تعكس أي تعاطف!

كم من المرات انتابه الشك في أن هاتفه معطل: كيف تمر أيام ولا يصله رنين الشوق؟ أين غاب الأحبة والأصدقاء؟ لقد أحبهم بصدق وكان كريماً بعواطفه وماله معهم، فلماذا انسحبوا من حياته؟! ولماذا، حين يهزمه الحنين وتنهش روحه الوحدة ويتصل بهم، يتنصلون منه بأعذار لا تقنعه؟...

هل تتصحر النفس البشرية كما تتصحر الطبيعة؟!

لم يكن يفهم الحياة دون تعاطف وحنان وحب، إنه لا يشعر أنه يعيش دون آخر، يُحدث نفسه أن ثمة فرقاً هائلاً بين أن يعيش وبين أن يكون مجرد رجل على قيد الحياة، لأن العيش كما يفهمه هو حركة وبهجة ومشاعر تتدفق بين القلوب والأرواح... أما هو فلم يفهم كيف تحوّل إلى رجل متخثر بالوحدة، في زمن تخثر أيضاً...

لولا حبة الرحمة، لولا اللكزوتان، لربما انتحر من هول الوحدة، لكن دواء الرحمة كان ينتشله من ألم روحه الحارق ويحوّل الألم إلى إحساس لطيف أشبه بنسمة. لم يقدم له دواء الرحمة السعادة، لكنه كان يخدّر آلامه، يحوّل حزنه الصلب الكثيف إلى مادة هشة، إلى وشاح شفاف...

لم يكن سهلاً عليه قبول هزيمته والانحسار الكبير في حياته الاجتماعية. حاول أن يلوم نفسه واتهمها بالتقصير، لكنه في كل مرة يتفحص علاقته بأصدقائه يكتشف أنه لم يتغير معهم، ظل يحبهم بالطريقة الكريمة ذاتها، يتذكر أعياد ميلادهم قبل موعدها بأسابيع، يسعده أن يقدّم لهم الهدايا التي تفرحهم، لا يترك مناسبة تمر إلا ويكون سباقاً ليتدفق محبة واهتماماً بهم، يقاوم غصة قهر وهم ينسون عيد ميلاده، يحاول أن يجد

لهم الأعذار، يتجاهل الوجع الصامت الأشبه بالأنين من هاتفه الأخرس، لطالما قلب أرقام هواتفهم على شاشة موبايله، كما لو أنه يعاتب صاحب الرقم الذي نسيه، تمر أيام وأسابيع ولا أحد يتصل به، يعميه الغضب من إهمالهم له، فيقرر ألا يتصل، ويؤنب نفسه مكرراً العبارة التي يحاول أن يجعلها معنى حياته (كما تراني يا جميل أراك) ومذكراً نفسه بحقيقة لا مجال للتهرب منها، بأنهم لم يعودوا يحبونه ويهتمون به كالسابق، فلمَ لا يعاملهم بالمثل، بل يجب أن يعاملهم بالمثل، لكن الوحدة تكسره، يحس بالقهر وهو يخرج من بيته بعد أن أضناه الإحساس بالوحدة، ويجلس في مقهى رصيف وحده، يشرب القهوة التي لها طعم مرارته، ثم يتمشى وحيداً ويعود إلى صومعة وحدته، متسمراً أمام الشاشة، وكل محاولاته لمؤاساة نفسه تفشل، كل محاولاته ليرسم ابتسامة على وجهه تفشل. يرمق الهاتف بنظرة حيوان جريح، يحس أنه حيوان، لأن الإنسان لا يشعر بإنسانيته إن لم يتفاعل مع آخر، مع توأم روحه... الوحدة المديدة تجعل إحساسه بكرامته الإنسانية تضمر، فيهبط إلى مستوى حيوان...

ذات مرة اتصل بصديق له كانت تجمعه به صداقة متينة وحميمة وعاتبه برقة على ابتعاده، فقال له الصديق ببرود: لدي ظروف خاصة وصعبة، وأنا أحب في هذه الحالة أن أكون وحدي...

همّ أن يتوسل إليه أنه مستعد أن يدعمه ويساعده في حل مشاكله، لكن الآخر رفض...

لم يفهم وقتها أن هناك ما يسمى أنانية الحزن، بل تعجب لِمَ سببت له هذه العبارة كل هذا الألم! صارت الأفكار تولد من ذهنه بمخاض مؤلم عسير، كما لو أنه يريد أن يطمسها ويمنعها من التبلور، أفكار عبارة

عن أسئلة موجعة: ما معنى الصداقة إذاً؟ ما معنى الصداقة إن لم يستطع الصديق البوح لصديقه بما يؤلمه ويقلقه، إن لم يشعر بالراحة بعد هذا البوح، إن لم يرَ التعاطف والمحبة في عيني الصديق!

كيف ينأى صديقه بنفسه ويختفي من عالمه لأنه متألم من مشكلة ما، لا يبوح بها لأعز أصدقائه! ألا يعني هذا أن هذا الصديق يُعلمه بطريقة غير مباشرة بأن يتصرف مثله، وأن ينأى بهمومه ومشاكله وأوجاعه عن صديقه، ويجترها في وحدته... أهكذا تنتهي الصداقات بكل بساطة ودون سبب؟!

هل تصاب العلاقات الإنسانية بموت مفاجىء كالسكتة القلبية...

وهل هو الوحيد الذي يتوجع كل هذا الوجع لغياب الأصدقاء، كما لو أنهم فص ملح وذاب؟ لكن أيحق له صب كل اللوم عليهم أم يحمل زمن ابن كلب بالغ في قسوته على البشر حتى أدى إلى تجففهم من التعاطف والإنسانية؟...

لكن أليس الزمن القاسي نفسه يصيبه كما يصيب الآخرين؟ فلِمَ لم يتأثر، لماذا ظل مستعداً رغم كل إحباطه وآلام روحه وترويعه مما يجري في وطنه الحبيب من قتل أن يتدفق قلبه بالحب؟...

إنه يتألم من كل يوم يمر وهو وحيد، فمه مطبق على مرارة انعدام الكلام، انعدام التواصل بين إنسان وإنسان، حتى أنه شعر كيف أن الحزن يحوله إلى كائن هش، سريع التأثر، فكان كل مساء يجلس إلى أوراقه يخربش خربشات لا معنى لها، كما لو أنه يريد أن يكتب رسائل لهؤلاء الذين أحبهم ونسوه. ذات مساء ملأ صفحة كاملة بكلمات إنسان @ إنسان @ إنسان...

في تلك اللحظات بالغة القسوة من ألم الروح المنبوذة لم يكن له من معين سوى اللكزوتان، سوى حبة صغيرة حنونة مستعدة أن تدمر نفسها لإسعاده، لإراحته من أطنان من خيبة الألم والقهر والألم. كان يجلس على كرسي وحدته مُحنطاً، موجوعاً من الصمت، يرمق جهاز هاتفه بحقد وقرف وهو يتساءل: هل يعقل ألا يسمع رنين شوق لمدة أسابيع؟! كانت الحبة الصغيرة التي سرعان ما تنجده تسبح في دمه وتمنعه من السقوط في براثن اليأس الخطيرة، فما هي إلا دقائق حتى يشعر باسترخاء لذيذ، وبأن ألمه الصلب صار سائلاً، ثم تبخر، بل اكتشف أن حبة اللكزوتان وحدها قادرة على جعله يبتسم... وصار من متعته أن يقارن بين حبة اللكزوتان وبين البشر، تحديداً بين تأثير كل منهما عليه. كانت قسوة البشر التي صارت كقاعدة في الحياة، في حياته تحديداً، تصيبه بنوع من رهاب استمرار هذا القحط الإنساني والعاطفي والوجداني إلى ما لا نهاية، فيتساءل مروعاً: هل يعقل أن تستمر الحياة هكذا بلا تواصل إنساني حقيقي؟! أما حبة الرحمة فكانت تطلق سراحه من عالم الألم الأشبه بدائرة تعزله عن محيطه. حين توصل للمرة الأولى إلى ابتداع ذلك التعبير جنّ من الفرح وأسرع يسجّل تلك الفكرة التي عكست حقيقة مشاعره، بأن حبة اللكزوتان تطلق سراح روحه المتألمة. يا سلام! يا للحدس الرائع الذي نقله بطرفة عين من العدم إلى الوجود، الذي كشف له كما يكشف برق السماء أنه يعيش في هذا البلد مهزوماً ومنسياً وشبحياً وشاعراً كل لحظة أنه بحاجة إلى من يطلق سراحه...

حبة اللكزوتان الرحيمة تجعل حزنه شفافاً، وتجعله خفيفاً، وتعيد له قدرته على دندنة أغنية، ترخي حنكه المتصلب من القهر، والأهم أنها

تعلمه كيف يتآلف مع ضجره ووحدته، وينشأ علاقة ودودة معهما... الحبة الحنونة تجمّل وحدته وتحولها إلى كائن لطيف، تساعده أن يستنسخ صديقاً من روحه... إنها تدخله في غيبوبة رحيمة كما لو أنها نوع من استراتيجية الدفاع عن الذات، لأنه سينهار فيما لو واجه بعقله الصرف ما يحدث في وطنه من قتل وترويع، سينهار إذا حاول أن يستوعب المجازر التي تحصل بين وقت وآخر، سينهار فيما لو حاول أن يتخيل مئتي وجه هم القتلى الذين سقطوا ويسقطون كل يوم...

ذات مساء أصابته حالة من الهستيريا، أراد أن يتمثل ماذا يعني مئتي قتيل. أحضر عدة دزينات من أوراق الشدة، وأخذ يفردها، ويعد من واحد حتى مئتين، وحين وصل إلى الرقم ١٢٠ انهار، أخذ يصرخ صراخاً مجنوناً ويتفوه بشتائم فاحشة مروعة، ما كان هو نفسه يصدق أنه يقولها، وكان ينظر بعينين تعكسان بريقاً مجنوناً إلى أوراق الشدة التي تحولت إلى شهداء... كيف عليه أن يستوعب أن هذا الرقم ٢٠٠ هو لبشر مثله، من لحم ودم، كانوا أحياء، وبرمشة عين خردقهم الرصاص وماتوا؟! في ذلك اليوم لم يطل فقط على عالم الجنون بل توغل فيه، حفّت به وجوه مدبوغة بالدم، مذبوحة، بعيون نازفة جاحظة تحدق فيه، كأنها تعاتبه، وصارت أضواء لامعة تتقافز أمام عينيه، كل ضوء يكشف له زاوية من لوحة حياته المخزية المغلّفة بعبارة عادي... كل شيء يبدو عادياً، اللافتات في الشوارع وقد كُتب عليها نصائح للعيش الصحي السليم للمواطن السوري، كم تأمل باشمئزاز تلك اللافتات التي تنصح المواطن أن يبدأ يومه بابتسامة وينهيه بابتسامة...

صرخ في وحدته كمجنون، كيف سنبتسم يا أولاد القحبة وكل يوم

يموت أكثر من مئتي مواطن، والحرب المجنونة الكونية أو غير الكونية، المؤامرة الكونية أم غير الكونية، الثورة السلمية أو غير السلمية، والدبابات والبنادق، وعشرات ومئات وآلاف أوراق النعي، والأعلام التي صارت وظيفتها ليس أن ترفرف في سماء الوطن، بل أن تلفّ الشهداء، وكل مواطن مشروع شهيد، وممنوع أن تكون جباناً، ممنوع أن تقول لا أطيق أن أحمل بندقية، ولا أطيق من اخترعها... في هذه الحالة أنت خائن ويجب إعدامك.

كيف تكون الحياة عادية وهو يسمع كل يوم عبارة إعدامات جماعية، وعبارة قتل ممنهج، وعبارة عدد القتلى حتى الساعة، وعبارة ستستمر المعركة حتى ولو لم يبقَ في الوطن إلا سوري واحد!

كيف ستستمر الحياة إذا قبِلَ تجاوزاً أن يُسمي ما يعيشه حياةً، وهو يتحمل كل هذا العهر في القسوة والإجرام وحيداً، لأن أصدقاءه أو ما اعتقدهم أصدقاءه، الذين أحبهم بكل روحه، قد غادروه، أداروا ظهورهم وانكفؤوا في قوقعة عزلتهم وأحزانهم وغرقوا في الاكتئاب؟...

كيف سيحتمل الجحيم لولا مساعدة صديق وحيد حنون يحبه ومستعد أن يضحي بحياته من أجله، صديق تفوّق على البشر هو اللكزوتان؟...

في تلك الليلة وهو يصرخ بجنون، ويضرب نفسه، ويغويه الموت أن يضع حداً لكل هذا العذاب، ويسمع أصواتاً تسخر منه قائلةً: أنت لا تعيش، أنت مجرد كائن على قيد الحياة، لأن العيش يعني الحركة والبركة والتعاطف... وأنت لست سوى حيوان في قفص ينتظر دوره في

الذبح... لولا ابتلاعه عدة حبوب من اللكزوتان لكان جن أو مات، لكان ارتكب حماقة بإنهاء حياته.

صحيح أنه أفاق صباحاً على إحساس مزعج بالغثيان وجفاف الفم، وكاد يسقط وهو ينزلق من سريره، لكنه وجد صديقه بجانبه، على وسادته، ساهراً عليه، أمسك العلبة الصغيرة بحنان، وطبع قبلة حب هائلة عليها وهو يقول: شكراً، شكراً صديقي اللكزوتان... أنت صديقي الوحيد الوفي في عالم فقد البشر قدرتهم على الإحساس ببعضهم البعض، لم يعد الآخر أخي في الإنسانية، بل صار الشخص الذي أصب نقمتي من الحياة عليه...

أعادته عدة فناجين من القهوة إلى وعيه، إلى صحوه المؤلم، وحين انطلق إلى عمله متجهم الوجه كالعادة، قابضاً على هاتفه الخليوي الأخرس، تنبه أن الحديث الصباحي لزملائه حول ضرورة تأمين وتخزين الخبز وبعض المواد التموينية كي لا تنقطع بسبب الحرب الكونية والمؤامرة الكونية على سوريا... ضجّ الضحك في أعماقه، ضحكٌ ساخر وشامت، فكر أنه لن يموّن شيء على الإطلاق سوى دواء الرحمة اللكزوتان.

هبة

هبة أخت الشهيد، أخت اسماعيل الذي لم يستشهد في فلسطين بل مات تحت التعذيب في أحد فروع الأمن. كانت أخته الوحيدة التي تصغره بعام، وكان أخاها الوحيد. لم أعرف لماذا سعيتُ للقائها، فأنا لا أعرفها ولا أعرف أخاها، لكنّ الألم وحّدنا، شعرتُ كما لو أن ألمي يشعّ من روحي ويتلاقى مع أشعة الألم المنبثقة من روحها ويتولد كهرباء في لقائهما. حصلت على رقم هاتفها واتصلت بها. لم تمانع أن نلتقي رغم أنها صمتت للحظات قبل أن توافق. فكّرتُ أنّ من حقها أن تتردد.

هبة أم لطفلين، طفلة في الثالثة من عمرها وطفل عمره سنة ونصف. كنتُ بانتظارها بلهفة غامضة، كما لو أنني أنتظر منها معجزة لا يستطيع أحد أن يقدّمها لي إلاّ هي. كنتُ أعاني حالة عجيبة من الانفصام عن ذاتي كما لو أنني أصبت بانشطار بين شخصيتي قبل الثورة وما بعدها. ثمة هوة سحيقة أحسها في زمني وروحي، بين ذاتي وزمني قبل الثورة وما بعدها... كما لو أنني عالقة في عنق زجاجة، كما لو أنني سأولد من جديد من مخاض يتعثر... كما لو أنني أنتظر فجراً يصعب على أشعة نوره أن تشقّ الظلام الكثيف...

لكن أيّ حدسٍ غامض وقوي ذلك الذي أحسسته بأن هبة وحدها سوف تردم تلك الهوّة بيني وبين ذاتي... حاولتُ تفحّص مشاعري قبل حضورها: لم يكن هناك أيّ صراع في داخلي، ولم أكن متأزمة، كنتُ بحالة نادرة من الانصهار بين كل أجزائي المتصارعة والمتنافرة لأنّ كل ما فيّ كان مشدوداً بلهفة لقاء أخت الشهيد.

أهلاً هبة. صافحتها وتبادلنا القبلات، وفضحت نظرتنا الإحساس ذاته كما لو أننا نعرف بعضنا منذ دهر. كنا نبتسم بمودة كبيرة، ابتسامة تشع من عيوننا وترتسم على شفاهنا؛ ابتسامة جعلت حرارة الهواء ترتفع في الغرفة. كانت كما تخيّلتها: رشيقة، طويلة، نحيلة، لكن لم أتوقّع أن الحجاب الأبيض الذي يحيط بوجهها الجميل سيبدو لي كأنه هالة من نور كتلك التي نراها على صور القديسين.

نزعت حذاءها وتركته عند الباب. قلتُ لها: لا داعي لذلك، لكنها ردّت على كلامي بابتسامة... سألتها عن ولديها فقالت إنهما بخير لكنهما يصادران كل وقتها... سألتها ماذا تحب أن تشرب، ردّت: كما تشائين.

قلت لها: أنا سأشرب شاياً أخضراً. قالت: وأنا أيضاً.

أحضرت الشاي وصحناً فيه حلوى. أسرتني هبة منذ اللحظات الأولى للقائنا، وأكثر ما أذهلني في شخصها أنها لا تعرف أيّ سلطة تملك. كانت إنسانة عظيمة ليس لأنها أم متفانية في حب أولادها، ولا لأنها أخت شهيد، لكن لأنها تملك سرّاً لا يعرفه إلا القلة، هؤلاء الذين اجتازوا امتحان الموت، وأدركوا أن الموت لا يهزم الحياة. هبة كانت قد عبرت النفق المعتم، وصارت على الجانب الآخر من الخوف... أول

إحساس وصلني، وأنا استمع إليها وأتأمل صفاء نظرتها المطلة من عينيها العسليتين الساحرتين، أنها هزمت الخوف – ملامحها مسترخية هادئة، تتكلم بعفوية وبساطة، لغتها أنيقة ومدهشة في قدرتها على التعبير...

لم يختنق صوتها بغصّة و لم تذرف دمعة. كانت تتحدث عن اسماعيل بسعادة وحب. كانت بحاجة أن تفتح قلبها لإنسانة تتعاطف معها، بل شعرتُ أنها في لحظة ما قررت أن تفتح لي قلبها كما تفتح صندوق كنزٍ ثمين.

كنتُ قد استأذنتها بأنني أريد أن أعرف أكثر عن اسماعيل، عن أخيها ذي الثمانية وعشرين ربيعاً، الذي مات تحت التعذيب في أحد فروع الأمن لأنه كان معارضاً وناشطاً على الانترنيت، وكان مواظباً على صلوات التراويح... أردتُ أن أعرف عاداته، وصفاته الإنسانية... أردتُ أن أعرف كيف استطاعت أن تتحمل أن يموت أخوها الوحيد تحت التعذيب؟ كيف باستطاعتها أن تنام وأن تطبخ وأن تعتني بأولادها؟ كيف استطاعت أن تتماسك؟

كانت تعرف ما أريد، واحترمته... كانت كلّ منّا تحتضن كأس الشاي الأخضر الساخن، وكنا ننظر في عيون بعضنا، ومشاعر هائلة من التعاطف تكتسحنا؛ كنا ندرك أنه لم يكن من فرق بين قلبي وقلبها، وإحساسي وإحساسها، توحدنا وصرنا مواطن سوري مجروح ومتألم، لكنه غير خائف ولا يائس...

تركتها تحكي عن اسماعيل، بل شعرتُ أنها سعيدة بالتحدث عنه. تنهدت وأخذت نفساً عميقاً وقالت بعد ضحكة قصيرة: أتعرفين في كلّ مرة أحكي عنه أشعر أن قلبي يفرّ من قفص أضلاعي، لم أعد أخاف شيئاً،

كما لو أن موته حررني من خوفي، ياه، أنت ترينني الآن مبتسمةً وهادئة، لو تعرفين كيف كنتُ، لقد عشتُ أتنفس الخوف، كنتُ مذعورة حتى من أفكاري التي تعبر دماغي، فأطمسها كما لو أنني أئدها. الآن لم يعد يخيفني أي شيء... حتى أنني لا أخاف على أولادي لأن الشر لا يمكن أن يستمر طويلاً: هذا ما علّمني إياه اسماعيل. اسماعيل لم يكن يخاف، كان يعرف أن ما يكتبه على صفحته في الفيسبوك سيؤدي إلى اعتقاله وربما إلى قتله، لكنه استمر في الكتابة... الآن أفهمه، أقصد لقد احتجت لصدمة مروعة كي أفهمه. اسماعيل أراد أن يقتلوه وقتلوه، كي ينتصر عليهم لأنه بموته فقط يمكن أن يكون شاهداً على الظلم والقمع والتعذيب... كان يجب أن يُلقي بجسده كطعم لهم، لأنه يؤمن أن ليس هناك أسهل من قتل جسد، لكنهم لا يعرفون أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

كانت تحكي وأنا أتشرّب كلماتها بنهم، مذهولةً من ذكائها وعمق أفكارها والمفردات المعبّرة بدقة عن مشاعرها وأفكارها، لعل الألم يولّد في العقل نوعاً فريداً ومميزاً من الذكاء... كانت هبة تحكي فتتجسد كلماتها صوراً نابضة بالحياة. كانت روح اسماعيل معنا، أمكنني أن أشعر بروحه متجسدة بيننا.

سألتها: هل توقعت أن يقتلوه، أم أنك كنتِ تأملين أن يُفرج عنه ويخرج من المُعتقل حياً؟

انخطفت نظرتها إلى البعيد، شعّت عيناها بابتسامة، كانت ترى اسماعيل وتبثه أشواقها... رشفت الشاي ونظرت صوبي كأنها تتجاوزني. قالت: سأبوح لك بسرٍّ لم أقله لإنسان، لكني أحتاج أن

أتحرر منه. أتصدقين، في الفترة التي اعتقل فيها اسماعيل لا أعرف من أين كنتُ أستمد القوة لأصمد، كانت أمي منهارة، تبكي، وكان أبي غارقاً في صمتٍ أليم، وكان عليّ أن أدعمهم وأطمئنهم أن اسماعيل سيخرج قريباً من المُعتقل، لكنني في الليل كنتُ أنهار، كنت أبكي وأنا أرتجف من الخوف، وأتخيل أخي وهو يتعرض للتعذيب. لا يمكنني أن أصف لك مشاعري، لا توجد كلمات في كل لغات العالم قادرة على وصف تلك المشاعر، لكن يكفي أن أقول لك إنني كنتُ أصلي لله أن يأخذ روح ولديّ وألا يموت اسماعيل. أعرف أن ما أقوله فظيع، لكن هذا ما قلته. كنت أنظر إلى ولدي وأقول لله: خذهما، لكن لا تسمح لهم بقتل اسماعيل.

لكن الله لم يستجب لدعائي.

تجرّأت وسألتها: كيف كانت لحظة سماعك بموت اسماعيل؟

مسّدت وجنتيها بأصابعها الرشيقة، أخذت نفساً عميقاً، ومن عينيها العسليتين شعّ نورٌ، نور حقيقي، قالت: الذهول، هذا كل ما بإمكاني قوله لك. لا يمكن أن أنسى في حياتي تلك اللحظة، لحظة دخول جثمان اسماعيل إلى البيت، تجمدنا جميعاً أنا وأمي وأبي... لم يرفّ لنا جفن، حتى صوت تنفسنا غاب، لم ننطق بكلمة و لم نتبادل النظرات، تجمّد نظرنا على الجثمان.

لكن لم يكن حضور اسماعيل قوياً بيننا كما كان وهو ميت... كان حضوره آسراً وطاغياً وآمراً، لقد أمرنا ألاّ نبكي ونتفجّع، كان سعيداً، سعيداً، صدقيني، حتى أن الزغاريد ملأت البيت. لم أنتبه للنسوة وللجيران وللأقارب والأصدقاء، اقتربت من اسماعيل ومسحتُ على

وجهه، كان دم متخثر يملأ أنفه وأذنيه، وكدمات سوداء على أجفانه، لكن فمه كان يرسم ابتسامة نصر. عليك أن تصدقيني فأنا لا أتخيل، والله كان مبتسماً... كانت آثار التعذيب بالكهرباء واضحة على جسده، خاصةً عضوه... لكني سمعته يهمس لي وأنا أقبّل جبهته: أنا لستُ بميت يا هبة، لستُ بميت لأنني تحوّلت إلى هداية ومنارة...

كان عليّ أن أتعرّف إلى اسماعيل بعد وفاته. أدهشتني كتابته على صفحته في الفيسبوك، كل أفكاره تدعو إلى الحرية والكرامة مع الإصرار على سلمية الثورة، حتى أنه كان عارفاً بموته أو يتوقعه.

أظنك تعرفين أنّ عناصر من الأمن حين سلّمونا جثمان اسماعيل قالوا لنا إنه مات بالسكتة القلبية.

ضحكتْ فجأةً، وكما لو أنها قفزت إلى ضفة أخرى من الذاكرة. قالت لي: تصورّي، كانت أمي تموت من الخوف عليه وكانت تسهر معه حتى الفجر كي لا يكتب على الانترنيت، وترجوه وتتوسل إليه ألا يكتب، كانت تحس بغريزتها أن ما يكتبه سيزجّه في خطر، وكان يطمئنها لأنه لا يطيق أن يراها قلقة ومتوترة...

الآن تطلب مني كل يوم أن أقرأ لها كتاباته، أقرأ لها كلماته الرائعة الملونة، الأشبه بفراشات سعيدة بالحرية والدفء. أشعر بها فخورة به، تنصت إلي وهي تحتضن صورته. أنا واثقة من أنه اختار موته، وهو يريدنا أن نبارك استشهاده. كان أخي عارفاً إلى أين سيمضي. تصوري أنه كتب على صفحته: لو أن كل أم أو أخت أو زوجة منعت الشباب في أسرتها من الخروج في المظاهرات المطالبة بالحرية والعدالة فكيف سيتغير الوضع؟! ما معنى ثورة إذاً؟

الآن أفهم اسماعيل أكثر، كان مؤمناً أنه بموته سيتفوق على الحياة: حياة الذل والقهر وسحق الكرامة.

الآن سأربّي أولادي وأحكي لهم بفخر عن خالهم و...

فجأةً اختنق صوتها وتقلصت ملامحها بألمٍ فظيع وانهمرت دموعها...

تعجّبتُ من هذا الانقلاب المفاجئ في شخصيتها، كيف تتحول بلمح البصر من إنسانة متماسكة مبتسمة إلى إنسانة تنهار فجأة...

وضعت كأس الشاي وحاولت أن تتماسك بقولها بصوت مرتعش: الشاي صار بارداً.

أمسكت يدها وقبّلتها. سحبت يدها ورفعت إليّ عينين باكيتين وهي تقول: أعوذ بالله. قلتُ لها: لي الشرف يا هبة أن أقبّل يديك. أتعرفين ما معنى أن تكوني أخت الشهيد؟ إن عظمته مستمرة من خلالك... إنه...

قاطعتني: إنه توأم روحي، توأم روحي، هذا ما أحسه، لا يوجد إنسان في العالم أحببته كما أحببت اسماعيل، لكن ما يعذبني مجرد صورة، مجرد صورة والله، لأنني مؤمنة أن الشهداء عند ربهم أحياء يرزقون.

سألتها: أية صورة؟

- صورة غريبة، لا أعرف لَمَ تلح عليّ دوماً، صورتي أنا وهو في مريلة المدرسة نحمل حقائبنا المدَرسية، أنا في الصدارة الوردية وهو في صدارته الزرقاء، نمسك بأيدي بعضنا وننتظر الباص... كما لو أن كل حبي له وكل شوقي وافتقادي له يتجسد بتلك الصورة. حاولت استبدالها بصور أخرى، أو إشراكها مع صور أخرى، لكن عبثاً، خيالي لا يعكس إلا تلك الصورة. ترى ما دلالة إلحاح هذه الصورة بالذات عليّ؟!

فكّرت و لم أهتد إلى سبب مقنع... قلتُ لها: لا أعرف... وقمت لأحضر شاياً جديداً... قلتُ لها: لم تتذوقي الحلويات ياهبة، إنها لذيذة.

ابتسمت وهي تمسح دموعها: كان اسماعيل يحب الحلويات كثيراً، وكان يطلب مني أن أحضر له كاتو التفاح بالقرفة دوماً.

وجدتني أتشجع وأسألها: أيمكن أن أكتب عنه، أتسمحين لي؟

ضحكت ضحكة صافية طالعة من قلبها.

تركتني واجمةً، واستأذنت بالانصراف لأنها لا تستطيع ترك أولادها لفترة طويلة، وكأنها استدركت فقالت: سآكل قطعة حلوى نيابةً عن اسماعيل.

أكلتها وقالت: لذيذة جداً.

عند الباب تبادلنا القبل وتواعدنا على اللقاء ثانية، وقبل أن يُغيبها الدرج التفتت إليّ وشعّ وجهها بالأمل...

قالت: نسيتُ أن أسألك، هل كان كلامي عن اسماعيل كافياً أم أنك تريدين معرفة أشياء أخرى؟

كنتُ أتأملها بانبهار، فكّرت أن ليس من باب الصدفة أن يكون اسمها هبة... أنت هبة من الله يا أخت الشهيد، أنت استمرار له، ولن يعرف أولادك الذل ولا المهانة ولا الخوف.

هبة تجعل كل شيء نابضاً بالحياة حتى الموت.

هلال

هذا اسمها، الذي أثار دهشتي وجعلني أفكر بقناعة تامة أنها كانت بدراً، لكن آلام روحها المروعة جعلت البدر يتآكل ويتحول إلى هلال...

جمعتني بها صدفة غريبة، كنتُ أسير في الشارع حزينة كالعادة، متأملة الوجوه الحزينة حولي، في وطن منكوب اسمه سوريا، اعترضت طريقي امرأة قدّرت أنها في عقدها السادس، غاطسة في السواد، تكشف عن وجه شوهه الذل والألم، وتحمل في يدها بطاقة هوية وتشحذ وهي تقول: أكرموني من مال الله يا أولاد الحلال أنا من حلب...

كم أحس بالخزي والألم حين ألتقي بشحاذين كبار في السن على أعتاب الشيخوخة، أفكر أنهم حقاً في أرذل العمر، لأنهم في أرذل الظروف... مددتُ يدي إلى حقيبتي لأعطي المتسولة مالاً، وأنا أفكر أن أسلوب التسول يتطور مع الزمن والظروف، وأن إظهار الهوية صار - ربما - ضرورياً للتسول...

ما أن هممت بإعطاء المتسولة الكهلة النقود حتى علا صوت غاضب وملتاع من الألم، لامرأة شابة تقول لي بلهجة حلبية صريحة: أبوس عينك لا تعطيها مالاً، أبوس روحك لا تعطيها مالاً...

كان الصوت قد شرخ روحي قبل أن أرى الوجه، صوتٌ قوي زلزل كياني كأنه قادم من إنسانة تحت الأنقاض في بيت متهدم لشارع متهدم في حلب، وحين التفتُ لأستطلع من صاحبة الصوت، طالعني وجه صبوح لشابة جميلة لكن ملامحها تعكس إنهاكاً فاضحاً، ذلك الإنهاك الذي نلاحظه على وجوه من تعذبوا كثيراً وقاوموا العذاب طويلاً. كانت ملامحها تشي بفقدان الهمة، والسيطرة على أعصابها، عيناها السوداوان ترشحان بالدمع، وشفتاها تختلجان وتبرطمان بكلمات متداخلة غير مترابطة، لكنني فهمت مدى إصرارها ألا أعطي المتسولة مالاً لأنه عيب أن يتسول أحد باسم حلب، حلب عزيزة وأبية وذات كرامة...

انفجرت بالمتسولة غاضبةً: أنت كاذبة، أنت لستِ من حلب، لستِ من حلب...

و لم تتمكن المتسولة من الدفاع عن نفسها لأنها خافت من تلك الشابة المتأججة من الألم. عرفتْ أنها لن تربح الجولة إذا دخلت معها في سجال لتثبت لها أنها من حلب...

مددتُ يدي أطبطب على كتف الشابة وأزيح خصلة من شعرها الأسود الناعم طيّرها الهواء على وجهها فالتصقت بدموعها. فوجئت أنها ارتمت بين ذراعي وأخذت تبكي بحرقة على كتفي...

كنتُ في حضرة كيان حُرّ، أشبه بدوار مشتعل بالكرامة والثورة، كان جسدها يرتعش بثورة الكرامة التي تصرّ الحياة على أن تعفرها في وحل القسوة والدمار والقتل.

لم أستطع أن أمضي في طريقي، بطريقة ما كانت تلك الشابة ابنتي،

أو مرآة روحي. قد لا يكون ألمي صاخباً وملتاعاً مثل ألمها، لكنني صرتُ أعيش حالة من نفاذ الصبر مع ألمي لدرجة صار يخطر ببالي أن أتمكن من ركل يومي لحظة استيقاظي ركلةً قوية تقذف به فوراً إلى رحمة الليل، حيث أنام بمساعدة المنوم لأريح نفسي من وجع الصحو...

دعوتها لنشرب قهوة في مقهى رصيف، وافقت بحماسة، تأبطت ذراعي ومشينا ابنتين لوطن ينزف دم أبنائه، ابنتين لوطن. صار السوري يقتل السوري لأن الشيطان أحب أن يستوطن سوريا...

لم أسألها عن اسمها و لم تسألني عن اسمي. جلسنا متقابلتين في مقهى الرصيف. كانت تحاول أن تسيطر على هيجان انفعالها، وحاولت أن أهدئ من روعها، بأن أكرر لها تلك العبارة التافهة التي لا أطيقها، والتي يقولها لي أصدقائي حين أكون في حالة من الغليان والألم، مثل حالة الشابة الحلبية: بسيطة، طولي بالك...

ضحكت بمرارة وقالت: ليتها كانت بسيطة! وليت بالي يطول!

ثم صمتت لحظة ودوّرت خاتم الزواج في إصبعها وقالت: هل تمانعين أن ينضم زوجي إلينا؟

قلتُ: أبداً، بل يسعدني ذلك...

لوحت لشاب كان يقف غير بعيد عنا، فاقترب منا، سلّم علي بتهذيب ممزوج بألم حاول إخفاءه، وجلس بجانب زوجته...

لم نكن بحاجة لمقدمة لنتعارف، كنا – نحن الثلاثة نعرف بعضنا جيداً – فكل واحد منا مرآة للآخر، يجمعنا الدم السوري النازف بغزارة، يجمعنا الحزن القاتل للدمار الذي لم يترك مدينة أو قرية في سوريا إلا وأمعن في تدميرها، يجمعنا الخوف من القادم الأعظم، يجمعنا

إحساسنا أن الحياة رخيصة جداً في سوريا، وأننا كلنا مشاريع شهداء، يجمعنا الخوف الذي يلجم لساننا ويدفع بعضنا للتحدث عكس قناعاته وأفكاره... يجمعنا إحساسنا أن الحياة في سوريا مأساة، وأننا نحس، كلٌ بطريقته، أن كل شيء في هذا الوطن ذاهب إلى الموت، حتى النهار نحسه مصاباً بالاكتئاب وسوف يرتمي منتحراً في ظلام الليل.

– ما رأيكما بعصير الرمان؟...

وافق الزوجان وأبديا سعادة صريحة خجولة. تدفق حنو هائل من روحي نحوهما. رغبتُ لو أكون ساحرة وأدخل السعادة والطمأنينة إلى قلبيهما بطريقة ما. عرفتُ أنهما تركا حلب منذ شهرين بسبب القصف الفظيع على الحي، وأن بيتهما – عش الزوجية – الذي كل غرض فيه جديد، واختاراه بعناية وفرح وحب، قد تدمر. حدثني زوجها أنه يعمل نجاراً ولديه معرض للمفروشات بجانب المحل، وبأن كل شيء دُمّر، ولم يعد يملك شيئاً...

كنتُ أنقل نظري بين وجهي العاشقين وأنا خاوية الذهن، كما لو أن كلماتهما تملك قدرة على محو كل شيء، كل شيء في ذهني. رغبتُ في أن أسألهما كيف بإمكانهما أن يستمرا في الحياة وقد خسرا كل شيء؟ كيف يستطيعان أن يتكلما وأن يجدا الهمة للمشي؟ كيف تجد تلك الشابة الجميلة القدرة على الصراخ في وجه متسولة تدّعي أنها من حلب وتهين كرامة حلب وأهل حلب؟

كنتُ أحتاج أن أمسك ورقة وقلماً وأكتب ما أسمعه منهما، كنتُ أحتاج أن أقوم بجردة حساب مع الحياة... كنتُ أريد أن أغوص في أعماق روحيهما لأعرف كيف تمكنا من التعايش مع المأساة!! كيف

يمكن لإنسان أن يعيش وهو يتأبط المأساة؟...

بدا لون عصير الرمان بلون قلبيهما النازفين. تفجّر خزان من الحب والتعاطف في داخلي لدرجة قاومتُ دموعي، وقاومتُ رغبة ملحة وسخيفة أن أقول لهما مع كل رشفة عصير رمان: ألف صحة...

هدأت الشابة وحكت لي كم تحب حلب. أغمضتُ عيني وأنا أستعيد الصوت المزلزل الذي خلخل الهواء حولي (أبوس روحك لا تعطيها مالاً)... قالت لي إنها تبذل كل يوم جهوداً خارقة لتظل متعلقة بخيط الأمل بأن حلب ستعود كما كانت...

ياه، ما أسهل البوح بين المتألمين! لا شيء مثل الألم يلحم الناس بعضهم ببعض، مرارة الألم تحرق كل الشوائب وتذيب الحواجز بين الناس، فتتألق الأرواح بطهارة البوح والحقيقة... باحت لي كيف قاومت الرعب واليأس والخسارة بالصلاة، وأنها كانت تقضي ساعات تصلي وهي متكومة على الأرض، ولم تخجل من اعترافها بأنها لم تعد تصلي كالسابق لأن وحشية الألم بددت قدرتها على الصلاة...

كانت تنظر إليّ وتتجاوزني كما لو أنها تخاطب الحياة، كما لو أنها في حضرة قدر وحشي أمعن في تعذيبها وإذلالها، وشعرتُ بها تماماً كيف تبذل جهوداً تفوق طاقة البشر للتغلب على هبّات اليأس القاتلة. كم كان من السهل أن أتعرف على مشاعرها لأنني خبرتُ – ولا أزال – ذلك الألم الأشبه بالإعصار الذي يجعلنا نعيش كأن كياننا يُدوّم في غيبوبة محمومة، مذهولين ممّ يحيط بنا...

كان زوجها يصغي إليها واجماً، ويقاطعها من حين لآخر لرغبته في أن يبوح بوجعه على طريقته. أكثر ما يؤلمه استغلال السوري للسوري

كما قال لي. اختنق صوته وهو يقول: أليس من المعيب أن يستغلنا الناس في هذه الظروف، فتتضاعف أسعار المواد الغذائية وإيجار البيوت؟... أهكذا يساعد الإنسان أخاه الإنسان؟! أهكذا يساعد إنسان غير منكوب إنساناً منكوباً؟! يستغله بدل أن يرأف به ويساعده...

كان كل سؤال يطرحه يكشف جرحاً ملتهباً في روحه...

كرر عبارة: كيف يمكن لأخي السوري أن يستغلني وبيتي ودكاني قد دُمّرا في حلب؟... كان هدوءه أقرب إلى الإحساس بالعجز حيال صفاقة البشر والحياة...

مسح دمعة انهمرت رغماً عنه من عينه وقال: لو كنتُ أعرف أن هذا ما سيحصل لنا، لو كنتُ أعرف أن بيتي ودكاني وكل ما أملك سينهار بومضة عين لكنتُ بعتُ كل شيء في حلب وهججتُ من بلد الموت.

قاطعته زوجته: لا، لا تقل ذلك، حلب روحي، سنعود إلى حلب سنعود...

انكشفت لي الحقيقة دفعةً واحدة، فهلال تملك المقدرة على الاستمرار حية، معلقة بخيط الأمل بسبب عشقها اللامحدود لحلب...

مسحتُ على شعرها الأسود الناعم المشعث بحنان، قلتُ لها: اسمك جميل جداً، لم أعرف إنسانة بهذا الاسم من قبل...

ابتسمت وترقرقت عيناها بالدمع: لو عرفتني كيف كنتُ، كنتُ أتفنّن في تسريح شعري، حتى، حتى، اختنق صوتها بالدمع... فأكمل زوجها ما أرادت أن تقوله: تصوّري، إنها حزينة أكثر شيء على ألبوم الصور، كانت هوايتها أن تصوّر كل مناسبة، لديها أكوام من الصور...

بذلت جهداً كي تقاوم غصة القهر من حنجرتها وقالت: تصوري،

كل صور طفولتي ومراهقتي وصور عرسي احترقت... الحريق التهم كل شي، كل شيء...

قلتُ لها محاولة أن أواسيها: الصور تبقى في ذاكرتنا يا هلال...

هزّت رأسها غير موافقة، و لم تستطع أن تتكلم لأنها كانت تتأجج من الألم...

قالت: غير صحيح، غير صحيح، كنتُ أتمنى لو يكون معي ألبوم الصور فقط، كان سيساعدني كل يوم وكل لحظة كي لا أخسر معركتي اليومية ضد اليأس.

هنأتها على تلك العبارة: معك حق يا هلال، كل يوم هو معركة ضد اليأس...

شردت، استرخت ملامحها وشع بريق من عينيها، بدت أنها تستعيد تلك الصور، مستعيدة معها ومضات من سعادة، ضحكت وتدفقت بالكلام عن هوايتها منذ طفولتها بالتصوير. قالت لي: تصوري، ذات مرة نجحت أن أصور فأرة صغيرة مختبأة في مطبخنا. صوّرت كل شيء: البراعم قبل أن تتفتح وبعد أن تتفتح، صورت وردة يابسة مختبأة في طيّات كتاب، صورت حديقة السبيل مئات الصور، والأطفال يلعبون في أرجائها... صورت الشروق والغروب، والقمر و...

أخفت وجهها بين راحتيها وانهمرت بالبكاء... حل صمتٌ من رصاص بيننا إلى أن خرقه صوتها: كل الصور احترقت...

فكرت أن هذه الإنسانة المرهفة الرقيقة المشعّة بحب الحياة قد عُطبت في جوهر كيانها، نواة كيانها نُخرت بهول المأساة. إنها تشعر كيف أصبحت عالقة في شراك اليأس والدمار، ولا تعرف كيف تفسّر

وحشية البشر ودموية الإنسان، إنسانة قد تفقد عقلها كملايين السوريين المروعين، إنسانة تحوّل عيشها إلى مأساة ووجودها إلى لعنة...

كانت أعماقها محطمة كمنزلها ومحترقة كصورها، والرجل الذي أحبته وتزوجته خاسر مثلها، ومحطم الروح مثلها... كانا منفيين في بيتٍ بسيط مرتفع الإيجار في اللاذقية وروحهما هناك تحوم حول الدمار والحرائق في حلب...

عاشقان رائعان يقفان على حطام أحلامهما وعشهما الآمن ومستقبلهما... عاشقان مطروادان من جنة الحب حلب...

تواعدتُ على لقاء هلال وزوجها، اكتشفنا أننا نحب النوع ذاته من المعسّل: الليمون مع النعناع. استطاعت الأركيلة أن تنتزع من وجوهنا الحزينة ابتسامة...

لكن كلما فكرتُ بهلال، أو استعدتُ ملامحها، يشرق قمرٌ مكتمل مشع في خيالي... اسمها هلال لكن انطباعها في روحي بدر.

هيثم

اقتحم المكان، كما لو أن قوة خفية ركلت جسده النحيل، ورمته على المقعد الجلدي الضخم، الذي أظهر النحول الشديد للشاب الوسيم في ربيع شبابه...

كنتُ في مكتب صديقي المحامي متوقد الضمير، نتبادل حديثاً نازفاً عن وطن ينزف أبناءه، حين شعرنا أن الزمن توقف فجأةً؛ توقف في ذروة الألم باقتحام هيثم للمكان...

لم يلتفت إليّ، أظن أنه لم يشعر بوجودي، فقد كان يرزح تحت وطأة قوة باطشة تسحق روحه بلا رحمة، ودون سابق إنذار ولا مقدمات أصيب بنوبة هستيرية وأخذ يبكي كطفل – كان مذعوراً حتى أطراف أصابعه التي كانت ترتعش ارتعاشات لاإرادية.

ارتبك صديقي المحامي من مشهد شابٍّ مُنهار، وحاول أن يستفهم منه سبب انهياره المفاجئ، ثم انتبه إلى أن من واجبه أن يقدّمه لي وأن يعطيني فكرة عنه.

قال لي إن هيثم كان معتقلاً مع عدد من زملائه في العمل، اعتُقل لمدة أربعين يوماً، ثم أُفرج عنهم بالعفو الرئاسي.

سألت الشاب: ما تهمتك حتى تمّ اعتقالك؟...

نظر إليّ من خلال غلالة دموعه السخية، وقال بصوت مجروح: والله العظيم لا أعرف. وكرّر بلوعة: والله العظيم لا أعرف...

سألته: ولماذا أنت متأ لم لهذه الدرجة وخائف؟

قال وهو يحوّل نظره إلى صديقي المحامي: لقد استدعوني ثانيةً! استدعوني ثانيةً! اتصلوا بأهلي وقالوا لهم: قولوا له أن يراجعنا التاسعة مساءً...

خبط بيده على صدره بقوة، شعرتُ به يترنح على شفير الحياة، وقال: ماذا يريدون مني؟

لم أكن بحاجة أن أسأله من استدعاه! ومَن غير أجهزة الأمن المتنوعة والمتخصصة تستدعي الناس!

حاول المحامي طمأنته: ولماذا أنت خائف؟! اذهب إليهم، أنت الآن تملك صكّ براءة، أتفهم يا هيثم، صك براءة، لأن العفو الرئاسي بمثابة تأكيد على براءتك.

يبدو أنّ حالة الذعر الهستيري لدى هيثم منعته من استيعاب ما قاله المحامي. كانت مشاعره من العنف أنه صار يعاني عناءً في الكلام.

ويتوقف فجأة عن الحديث آخذاً نفساً عميقاً، كما لو أن الذعر الكامن في روحه يقطّع أنفاسه، وأخذ يتململ في جلوسه على الكرسي الضخم كما لو أنه يتلوى من الذعر...

أعدت السؤال متمنيةً أن أسمع إجابة واضحة منه: لكن يا هيثم، لماذا اعتقلوك؟...

التفت إليّ كما لو أنه تنبه لي لتوه، قال لي وقد أحس بتعاطفي الشديد معه:

– والله العظيم لا أعرف. تصوّري، في منتصف الليل اقتحموا منزل أهلي وشحطوني من الفراش. عصبوا عيني واقتادوني إلى منطقة مهجورة. رموني في زنزانة لثلاثة أيام دون أن يطعموني كسرة خبز أو يسقوني شربة ماء... وكانوا يضربونني ضرباً مبرحاً... كان يتكلم وعيناه تفصحان عن ألم عميق، كما لو أنه يستعيد صور الكابوس... وبدأ كلامه يضطرب وأفكاره تتوه. بدا أنه يهلوس، وأخذ يتدفق بكلام غير مترابط كما لو أنه يحدث نفسه. أخذ نفساً عميقاً وقال: الله يلعن العيش في بلد الذلّ هذا، والله ما أن فتحت عيني على الدنيا وأنا لا أرى ولا أتوقع سوى الذل والقهر والذعر... والله قرفت حالي، قرفت حالي، صرتُ أكره نفسي وأحس باشمئزاز من عيش الخنوع والذلّ... وهو مات، هكذا ببساطة، مات...

لم أكن أرغب بمقاطعته لكني سألته بلهفة متمنية أن أحصل على جواب: من هو؟

قال: زميلي. للأمانة أنا لا أعرفه، لكنه اعتقل مثلي، يبدو أنه حسّاس وضعيف، لم يستطع أن يتحمل التعذيب، فأخذ يهذي ويهلوس، وهم لا يريدون أن يسمعوا أية كلمة، يجب أن نظل بكماً. هم لم يفهموا أنه جن وأخذ يهلوس، فصاروا يمعنون في ضربه وتعذيبه، ويهددونه إن لم يصمت سيواصلون ضربه، لكن المسكين كان يهلوس، كان في دنيا غير الدنيا، كان قد تحطم، تحطم تماماً، فأمعنوا في ضربه، ورموه في زنزانته، وعند الفجر وجدوه جثة...

كانت كلمات هيثم كالحرق، تحرق كل براعم الأمل والثقة بالحياة في روحي، وصرتُ أنا وهو واحد: مواطن مسحوق. فكرتُ أن هيثم يمثل شريحة من الشبان السوريين الذين سيصنعون المستقبل... شبان دُمِّروا وأُهينوا وسُحقت كرامتهم واغتيلت أحلامهم... شاب بلا حلم يعني وطن بلا مستقبل...

كيف تحوّلت حياتنا إلى عار! كنتُ أتأمله بروحي. الروح وحدها هي من ترى الحقيقة، العين تكتفي بالمظاهر، أما الروح فترى الأعماق. أمكنني أن أحس بالذعر خلف بشرته الشاحبة، أن أحس بإحباطه وانهيار أحلامه وضياعه. كان غريقاً ولا يجد قشة يتعلق بها لينجو... كان أعزلاً ووحيداً في مواجهة (الهُم)...

قلبُ شاب اهترأ من القهر والذل والألم لدرجة صار يشمئز من حقارة الحياة، يشمئز من وجوده...

حاولت وصديقي المحامي أن نحقن هيثم بشيء من الشجاعة، وأن نؤكد له أنه قد حصل على العفو الرئاسي، وهذا يعني براءته، لكن بدا كلامنا كفقاعات الصابون سرعان ما تنفجر وتتلاشى في العدم...

لم يكن من كلام يساعده على تهدئة روحه، كان مسكوناً برعب طازج، برؤى مروّعة تأخذه إلى ماهو أبعد من ذاته وواقعه...

وكما لو أنه أحس بتعاطفي الشديد معه، خاصةً حين اقترحت عليه أن أرافقه إلى فرع الأمن، شعرتُ أنني لامستُ منطقة في روحه لم يُخرّبها الذعر والذلّ بعد...

ابتسم ابتسامة خجولة وهمّ أن يتكلم لكنه صمت...

تردّد قبل أن يبوح بالسر الذي يعذّبه: أتعرفين أن من اعتقلني

ليس الأمن تماماً، إنما زعيم الشبيحة... أجل زعيم الشبيحة، اعتقلني أنا ومجموعة من الشبان مثلي، وتهمتنا أننا نؤلف جماعة... ما هذه الجماعة، الله أعلم...

لقد مات سامر، مات، الشاب الذي صار يهلوس مات، قتلوه وتخلصوا منه...

سألته: هل هو صديقك، أقصد سامر؟...

قال: لا، لكن تعرفتُ به حين حشرونا في شاحنة معصوبي العينين واقتادونا إلى المعتقل...

سألته: إذاً ليس الأمن من اعتقلك إنما زعيم الشبيحة...

قال: لقد اقتحموا بيتي بلباس الأمن، وأخذونا إلى مكان مهجور، وزنزانات في قبو معتم... وقبل إطلاق سراحنا وصدور العفو الرئاسي بيومين نقلونا إلى فرع أمن الدولة...

ثم طلبوا منا أن نتكلم أمام الكاميرا ليشاهدنا كل الناس...

غاب ألمه فجأةً، وغاب ذعره، ولم يبقَ إلا الفراغ، فراغ موحش يطبق على روح هيثم... وسَرح في مشاهد مؤلمة انعكست بتشنجات في وجهه الوسيم.

سألته: وماذا قلتم؟...

ضحك فجأةً ساخراً من كلامي: ماذا قلنا؟! هم طلبوا منا أن نشكر الرئيس على العفو الرئاسي، ثم قلنا إننا لا نريد شيئاً وإننا سعداء...

تساقطت آخر دفعة من دموعه، وكرّر: سعداء، سعداء...

شرب هيثم كأساً من الماء، تساقط نصفها على قميصه، لم يستطع السيطرة على ارتعاش أصابعه، وأخذ ينصت لكلام المحامي الذي حاول

جهده أن يبثّ الطمأنينة في قلب شاب مُحطم، في قلب شاب سوري لم يعرف سوى الذلّ والذعر في وطن القتل والأمن والمخابرات...

– اذهب يا هيثم، أنت بريء تماماً، اذهب ولا تخف، لن يعتقلوك ثانيةً فأنت مشمول بالعفو الرئاسي...

تأملت الشاب المنكسر، المحطم الأحلام والمبعثر الكرامة، يمشي. لقد ذهب كما لو أنه يجازف بحياته؛ ذهب وهو يواجه انهياره الإنساني وفقدانه لذاته... وما أن وصل إلى الباب الخارجي حتى عاد مسرعاً، متعثراً بذعره، واعتذر أنه لم يسلّم عليّ مودعاً...

قاومت غصّة قهر هرست حنجرتي وأنا أصافح هيثم... كان ذعره ينبض في راحته كعصفور مذبوح لتوه.

يوم في اللاذقية

ما إن أنزلق داخل حزني كل صباح حتى يبدأ يومي.

صرتُ أتحاشى النظر إلى وجهي في المرآة كي لا أواجه ذلك الكائن الذي يستحوذ علي ويكتسحني: الحزن.

أقف مقابل مشفى الأسد الجامعي لأوقف تاكسي يقلني إلى المشفى الوطني. كل صباح تطالعني وجوه جديدة لشهداء وقتلى في عمر الورود. التجديد الوحيد في سوريا هو وجوه القتلى! لا أصدّق أن الموت في سوريا هو حقاً موت! أحياناً أصرّ على إقناع نفسي أن هذا الموت ليس سوى تمثيلية، شيء من لهو، من مزاح ثقيل، وأن من المستحيل أن يكون عدد القتلى ٢٠٠ وسطياً كل يوم! ونحن نعيش تحت يافطة كبيرة: حقوق الإنسان!

أقول لسائق التاكسي: إلى المشفى الوطني من فضلك. يسألني: أين تقع؟ أعرف من لكنته أنه من حلب. أتأمل ملامحه في المرآة الأمامية للسيارة، يصعقني حزنه. صرت فنانة في تصنيف أنواع الحزن، أعرفه من تلك الصلابة الخفيفة في الجبهة ومن النظرة الحائرة المنطفئة في العينين. أقول له: حسناً، سأدلك على طريق المشفى. أسأله عن حلب، أشعر أن

مواطنة سورية حزينة تسأل مواطناً سورياً منكوباً عن حلب. يخبرني أن بيته تدمر بالكامل وأنه بالكاد استطاع الهروب من جحيم القصف مصطحباً زوجته وأطفاله الأربعة، وأنه استأجر شقة بائسة في "البسيط" لأنه لا يملك مالاً لاستئجار شقة في اللاذقية. أخبرني أن أولاده لا يذهبون إلى المدرسة، وأن ابنته الكبرى تظل نائمة لأنها حزينة جداً وتفتقد بيتها في حلب ومدرستها وصديقاتها. سألته: ماذا تعني بأنها تظل نائمة؟

قال: كما قلت لك، تظل نائمة لا تريد أن تصحو، ولولا أمها التي توقظها لتأكل لبقيت مستلقية على الفرشة كميتة.

– كم عمرها؟

أجاب: ١٢ سنة.

قلت له: لكنها بحاجة لعلاج نفسي فهي تعاني من صدمة عصبية.

انفجر ضاحكاً بمرارة مكرراً كلماتي بسخرية لا تخفى: ما ناقصنا إلا العلاج النفسي.

أوراق نعي جديدة تفرش الجدار الخارجي للمشفى الوطني: كلهم الشهداء الأبطال. وأنا أخربش توقيعي على دفتر الدوام ألتقط حديث اثنين من زملائي.

– تصوّر، أهله دفعوا ٧ مليون ليرة فديه عن ابنهم المخطوف وهم يعرفون تماماً من خطفه، لكنه لم يرجع.

– وكيف دفعوا قبل أن يطلقوا أسره!

– ما بيدهم حيلة.

أمشي شاعرةً أنني أنزلق نحو هاوية رغم خطواتي المستقيمة. أفكر أنني يجب أن أشحذ تفكيري لاختراع آله تشبه المضخة تساعد

السوريين على ضخ حزنهم الذي يفوق قدرة الإنسان على تحمّله كي يضخوا حزنهم للخارج؛ كي لا ينفجروا كفقاعات الغيظ والقهر. نتحلق، ممرضات وأطباء، حول فنجان القهوة. أشعر أننا في جلسة عزاء، فالحديث دوماً عن قتلى ومخطوفين وعن فظائع! نحاول – كلّ منّا – أن يستمدّ شيئاً من عزاء من نظرة إنسانية وصوت إنساني. نحتاج أن يذكّر بعضنا بعضاً أننا بشر نحيا. لكن الحقيقة المفزعة التي تصلنا، وكل منا مرآة الآخر، بأنك حين تعيش في بلد القتل اليومي والتدمير اليومي ولمدة تقترب من عامين فهذا يعني أنك أنت ذاتك تصير موتاً؛ أنت ذاتك تتحول رغماً عنك إلى إنسان يتحرك ويمشي ويأكل وهو مسكون بالموت.

أتذكّر موعدي مع العقيد في فرع أمن الدولة في اللاذقية. لقد طلب مني مراجعة الفرع حال عودتي من البحرين. لا يزال منعي من السفر قائماً، وعلي كل مرة أن أستحصل إذناً للسفر!

مشيت متجاوزةً الحواجز الاسمنية وحواجز أكياس الرمل المكدّسة. بدا المنظر أشبه بشرايين مقطعة. فكّرت أنني ما عدت أميّز، لا في لغتي ولا في أحاسيسي، بين جسد الإنسان وبين المكان، كما لو أن المكان هو الجلد الحقيقي لنا.

صُعقت حين وجدت شجرة ياسمين عملاقة خلف الباب الحديدي العملاق لمبنى أمن الدولة، شجرة موفورة الحيوية والصحة ومثقله بالزهور البيضاء البديعة. فكرت: كيف تجرؤ شجرة ياسمين على التباهي بزهور روحها في مبنى أمن الدولة؟! لوهلة انتابني الشك أنها اصطناعية، لكنني مددت يدي وقطفت بعضاً من زهورها ودسستها

في جيبي فسرت رعشة فرح كدت أنساه في روحي وابتسمت ابتسامة خرجت من شغاف قلبي وأضاءت عيناي المعتمتين بالأسى.

سألني العقيد بلطف وإيجاز عما فعلت في البحرين، ثم طلب من موظف أن يصحبني إلى غرفة مجاورة ليسجّل بدقة لامتناهية ماذا فعلت في البحرين، وطلب هويتي وأخذ يكتب ببطئ. وددت لو اسأله لم لا يحضرون آله لتصوير الهويات بدل أن تظل أنفاسنا عالقة بقلم الموظف.

قررت أن أمشي وصورة شجرة الياسمين المزهرة بإفراط في مبنى أمن الدولة قد مدّتني بحيوية مباغتة. لكن مع كل بضعة خطوات يفاجئني المتسولون، وخاصةً من النساء والأطفال. النساء يحملن بطاقة هوية كي يؤكدن للمارة أنهن من المناطق المنكوبة والمدمرة، والأطفال يحملون علباً صغيرة ممتلئة بحبات العلكة. بدت لي العلكة أهم مادة في الحياة لأنها تساعدنا على مضغ وهضم أحزاننا.

أطفال سوريا النازحون يهيمون على وجوههم يبيعون العلكة ويرتمون بين السيارات كمن يرغب في أن يموت ويفرّ إلى سماء رحيمة.

تستوقفني وأنا أمشي لوحات إنسانية مروعة كما لو أنني أحضر معرضاً للبؤس الإنساني. يجمّدني منظر شاب في حضنه طفل يبكي، عمره أشهر وقدماه مزرقتان من البرد، وعلى يمينه طفلة تنام على قارعة الرصيف على وسادة أحلامها المقصوفة بشظايا ورصاص، وعلى يساره طفل يمضغ بضجر قطعة خبز. أقف أمام المشهد الحقيقي، أشعر بانصعاق أنّ ما أراه حقيقي! نتبادل نظرة أنا والأب؛ نظرة تخلق نفقاً يعجّ بآلاف النازحين والقتلى. لا أجرؤ على أن أسأله أيَّ سؤال إذ أخشى أن يقصم جوابه ظهري! فما عدت أتحمل المزيد والمزيد من الحزن كما لو أن

الشعب السوري مصاب بمرض شراهة الحزن. يصلني دعاءه: الله يوفقك ويحفظك.

ينقذني من ذاتي اتصال صديقة تسألني إن كنت أرغب في مرافقتها إلى المدينة الرياضية التي تغصّ بالنازحين وكي نقدم هدايا العيد للأطفال. ياه كم صرت هشة! كيف فجّرت تلك العبارة البسيطة دموعي؟ كيف فجرت تلك العبارة (هدايا العيد للأطفال) سؤالاً صعباً: كيف يمكن أن نحافظ على بذرة الحياة وسط محيط الموت والقتل والدماء والدمار؟

كيف يتحول وجودنا إلى معركة حقيقية كي نقنع أنفسنا أننا أحياء حتى اللحظة؟!

ألا يجب أن نعيد تعريف الحياة؟!

هل نحن أحياء حقاً ونحن نعوم على بحيرة من دماء السوريين والعالم المجرم يتفرج، وبان كي مون يرقص رقصةً لا أعرف اسمها وتغيب عيناه من الضحك؟!

أكياس طافحة بهدايا العيد حملناها الى أطفال سوريا النازحين. شعارات ونداءات في الفضائيات: تبرعات من أجل الشعب السوري؛ ضحايا العيد من أجل الشعب السوري. لكن لا داعي لأضاحي العيد؛ لا داعي لذبح الخراف، فالشعب السوري هو الأضاحي.

الشيطان استحى في سوريا من وحشية القتل فقال للسوريين: اتقوا الله.

الشيطان خسر معركته في سوريا واعترف بأن هناك شياطين للقتل في سوريا تتفوق عليه.

في زاوية من حديقة المدينة الرياضية استوقفتني لوحة مذهلة لوحة

تستحق جائزة عالمية لمن يبغون الشهرة في التقاط صور معبرة: أم تلبس عباءة سوداء مهترئة وتحمل في يدها قطعة قماش وابنها متكوّم كجنين في وعاء بلاستيكي ينتظر أن تحمّمه بزجاجة ماء واحدة فقط!

أم وطفل كان لهما بيت وسقف؛ كانا يملكان كرامة وإنسانية وماء حياة، الآن عليها أن تجهد فكرها بأمر واحد فقط: كيف ستكفي زجاجة ماء كي يغتسل ابنها على مرآى من الجميع كقط؛ ككلب، إنما ليس كإنسان.

اقتربت من الطفل حاملةً هدية العيد. اختطفها دون أن ينظر إلي. تواريت وراء حائط أرقب الأم تحمّم ابنها. تذكرت طقوس المعمودية عند المسيحيين. فكرت أن معمودية الماء لم تعد تكفي في سوريا بل صار واجباً علينا أن نتعمد بالدم.

رُلى

هل كانت لتثور على زوجها لولا ثورات الربيع العربي؟ تفجّرت هذه الفكرة في كيانها كزلزال وارتعدت من قوتها وتأثيرها، كما لو أنّ هذا السؤال تفجّر من كل خلية في جسدها، حتى أنها تخيلت كريات دمها الحمراء تنفجر بتأثير تلك الفكرة وتغرقها في دماء الثورة. يتماهى دمها مع دم شهداء الحرية، هذا ما تحسّه تماماً، لكن ثمة فرق بسيط بينها وبين هؤلاء المتظاهرين الذين يضعون روحهم على أكفّهم، ويشرّعون صدورهم العارية للرصاص غير آبهين بالطغاة، فقد تذوقوا طعم الكرامة والحرية والطهارة... أما هي فلا تزال معه، مع زوجها الذي صار اسمه "الطاغية" منذ تفجّرت ثورات الربيع العربي.

لم تعرف طوال حياتها حالة من عمق الوعي كما عرفت الآن، كما لو أن ذهنها مشحوذ بطاقة جبارة قادرة على أن تخترق الجدران وتذيب المعادن. شيء ما يتخلّق داخلها، امرأة جديدة تتمطى داخلها وتعلن عن ولادة جديدة. تتعجب كيف صارت تمسح وجهها من حين لآخر بحركات دائرية سريعة، ثم تشبك أصابعها على صدرها: حركة جديدة لا تعرف معناها لكنها فكرت أنها تشعر بحبيبات ندية على وجهها،

ثمة نقاط صغيرة تغمر بشرتها فجأةً، سمّتها رذاذ الحرية...

امرأة على أعتاب الخمسين، زوجة وأم، وجدة لطفلة عمرها شهرين، امرأة عاشت مع رجل طاغية أكثر من ربع قرن حياة لمّاعة تحسدها عليها الكثيرات. امرأة كانت تذبح خرافاً كل سنة وتوزعها على الفقراء كي لا تصيبها عيون الحسد... امرأة تزلزل كيانها بالربيع العربي فصار مشدوداً ومتأهباً بانتظار إعلان ثورته... قلبها يتململ من سجن أضلاعها، يريد أن يتفجّر، حنجرتها تؤلمها من الكبت وخنق صراخ ينهش حبالها الصوتية، تريد أن تنتزع حنجرتها؛ أن تزيل الصدأ عن حبالها الصوتية وتصرخ: الحرية، الكرامة...

لعلها أصيبت بانفصام في الشخصية لأن كل حياتها السابقة تحوّلت إلى لوحة باهتة، وخلف الصورة التي تمثلها وأفراد أسرتها مبتسمين وأنيقين، تحفّ بهم التحف والأثاث الثمين، ينغل العث والعفن... إنها تعيش ثورة أعماقها، وكل ما عاشته يمر أمامها كحلم... ترى كم من الزوجات ثرن على حياتهن بعد أن مسّتهن عدوى الربيع العربي.

الشعب يريد إسقاط النظام، وهي تريد إسقاط الزوج – هكذا تتحدث إلى نفسها، مبتسمةً وواعية أنها استعادت انسجامها مع ذاتها، وأنها تصالحت مع نفسها. صار بإمكانها أن تمازح نفسها أيضاً، وأن تردد مراراً في اليوم، منتشيةً وسعيدة، تلك العبارة: الشعب يريد إسقاط النظام، وهي تريد إسقاط الزوج... ما الفرق بين النظام والزوج؟!

عليها أن تكون أكثر دقة: ما الفرق بين النظام وزوجها؟! أليس زوجها أحد أركان النظام؟ أليس واحداً من أهم ضباط الأمن في البلد؟! ألم يقدّم لها قصوراً لتعيش فيها، وخدماً وحشماً وسائقاً وحراساً؟

ألم تؤمن خلال حياتها معه أنه رجل قوي يُشعرها بالأمان والحماية؟! وأنه يؤمّن مستقبلاً باهراً لأولادهما؟! ألم تكن كل الرؤوس تنحني مهابةً واحتراماً لها حين تمرّ، أو تتواجد في أيّ مكان؟! ألم تستمتع بأهميتها وسطوتها اللتين هما انعكاس لهيمنة وسطوة الطاغية – زوجها؟

لكن لماذا زلزلتها ثورات الشعوب العربية؟ ونسفت كل الأمان الزائف الذي عاشت فيه لسنوات وعقود؟! كيف بدأت ثورتها، هل يمكنها أن تحدد اللحظة بدقة؟ أين كانت تلك الثورة كامنةً كجمرٍ تحت رماد؟! ربما بدأت لحظة رأت الجموع الهائجة تكتسح الشوارع وتطالب بالحرية والكرامة، وإسقاط نظام الفساد – في تلك اللحظة لم تعد امرأة تجلس في الصالون الفسيح المختنق بالتحف، بل كانت واحدة من هؤلاء الصارخين بحقهم بعيش كريم وبالحرية.

ما عاد بإمكانها أن تكون متفرجة، بل صارت منخرطة بكل ما يجري، صارت تحدق في الشاشة بانبهار، مخطوفة الأنفاس، وكأنّ صراخهم صدىً لصراخ أعماقها المكبوتة منذ أكثر من ربع قرن، هؤلاء المهمشين الأبطال ثوار الكرامة، فجّروا قوةً جبارة في أعماقها، قوةً تتجلى بسخونة في راحتيها وطنين في أذنيها ورجفان في قلبها. لم تكن تميّز مدناً ودولاً، لا يهم إن الشاشة تعكس ثورة تونس أو مصر أو ليبيا أو اليمن أو سوريا، ما يهمها أن هناك ثورة شعب. كانت تكرر مبهورة كلمة شعب، مفتتنةً بالمعاني القوية الرائعة التي تتفجّر من هذه الكلمة...

ولم تنتبه إلى أنها كانت تتمايل نشوةً وطرباً على عبارة "الشعب يريد إسقاط النظام" إلا حين سخر منها زوجها قائلاً: لا ينقصك إلا أن ترقصي على نشرات الأخبار وعلى جعير هؤلاء الرعاع.

لم تلتفت إليه، و لم تمسها عبارته التي انزلقت عليها انزلاقاً، لقد أسقطته من حياتها، كانت في مكان آخر، تلهث مع هؤلاء الأبطال الذين يسميهم زوجها "الرعاع"، وبدأت تحلل العبارة بتؤدة وانبهار كما لو أنها تتعلم لغةً جديدة، فككت العبارة كما تفكك معادلةً صعبة: الشعب، يا للهدير القوي لكلمة شعب! كيف غابت هذه الكلمة من قاموسها ووعيها طوال حياتها؟ كيف نسيت الشعب فلم تعي إلا ذاتها وأسرتها والطاغية زوجها؟ أين كان الشعب؟ كيف غيّبته؟ كيف خانته وتنكرت له ونفته خارج وعيها وحياتها؟! الآن الشعب يصرخ أنه شعب وأنه يريد، الشعب يريد، الشعب يريد!! أيّ فعلٍ مزلزل لهذه العبارة؟ تكرر تلك العبارة بقوة متزايدة مع كل مرة حتى تجد نفسها في النهاية تقول: وأنا أريد...

ترى ماذا تريد؟ إنها تريد تماماً ما يريده الشعب: إسقاط النظام، وعليها إسقاط طاغيتها... لكن كيف؟ وهل يكفي أن تتحداه وتطلب الطلاق؟ بل تريد محاكمته.

منذ اندلاع ثورات الكرامة والحرية ما عادت تدندن بأيٍّ من الأغاني التي كانت تحبّها وتطربها. سقطت كلّ تلك الأغاني التافهة، وتلاشت كلماتها ومعانيها كما تتلاشى فقاعات الصابون. امتلأت ذاكرتها بهدير هتافات الحشود في الشارع وصارت تردد معهم الشعارات الرائعة، خفيفة الروح والممتلئة بالحياة والكرامة. صارت تتخيل نفسها وتجسّد مشاعرها في صور، فهي امرأة على حافة عقدها الخامس تنتفض من سبات طويل، وتشعر طوال الوقت أن جسدها محشور وسط أجساد الجموع الهائجة بالثورة. كانت امرأة على الحافة، حافة حياة جديدة

محفوفة بالمخاطر والمتعة، ولم تكن تلك الجموع الثائرة سوى مرآة روحها، لقد ساعدوها على أن تسقط قشرة الأمان والذل التي تعيش فيها كحيوانٍ في قفص، وأن تكشف عن ذاتها الحقيقية كما تكشف عن جرح.

كانت بطبيعتها امرأة ذات مشاعر قوية، حتى أن ابنها البكر كان يمازحها قائلاً: ماما، أحسك حشداً من النساء... كانت تعي هدير أعماقها والقوة الجبارة التي تملكها، قوة خام، لم تبالِ بها، قوة عمدت كل حياتها على حبسها في قمقم أو تنفيسها بطرق مخادعة كي لا تقوّض سلام أسرتها ومصلحة أولادها. ترى ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟ لقد تزوجته وهي في العشرين، وكانت في الخامسة والعشرين أماً لثلاثة أولاد... امرأة مصلوبة بالحب، مُصادرة تماماً لمصلحة قيمة عليا اسمها الأسرة، امرأة أقنعت نفسها أنّ عليها أن تنفي شخصيتها بعيداً، وأن تتعبّد أولادها، أوَليست الجنة تحت أقدام الأمهات؟ امرأة تنفي ذاتها، وتطرد شخصيتها لتتحول إلى مجرد وعاء يحتضن ويُربّي ويؤاسي، موهمةً نفسها أنها تستحق كل الإعجاب والتقدير والحب، لأنّ أروع دور للمرأة هو أن تكون أمّاً...

عاشت عقوداً في مؤسسة الزواج تحت مظلة الزوج، وبتعبير أدقّ تحت رحمته أو تحت سطوته وجبروته الناعم، عاشت عمرها ولديها مهمة يومية أن تطرد ذاتها الحقيقية خارج بيتها الفخم. عمدت طوال حياتها على تشذيب مشاعرها وقصقصة أجنحة أفكارها التواقة للحرية والكرامة، كما تقلّم أغصان الأشجار في حديقتها. لعلها أدركت الآن لماذا كانت مولعة بتقليم الأغصان، لأنها كانت – من حيث لا تدري –

تقصّ براعم الأمل في روحها وتقتلها كي تتابع عيشاً رديئاً وسط أجواء الترف المقزز... الإعصار الذي يدوم في روحها عرّى أعماقها وأمكنها من أن تفهم حقيقة عيشها، حساسيتها المفرطة وبكائها المتفجّع أمام الشاشة وهي تتابع أفلاماً، متماهيةً مع أحداث الفيلم. أكانت تبكي حقاً تأثراً بالقصة أم كانت تبكي على حياتها وذاتها التي ضيّعتها؟ تبكي حريتها التي ارتضت أن يدوس عليها الطاغية، وأن يحوّلها إلى عبدة. كم تقرف من ابتساماتها التي كانت تردّ بها على متعته الدائمة بالسخرية منها والتقليل من شأنها وتحقير أفكارها. كان يوظف ضحكه دائماً للسخرية منها، للحطّ من أفكارها التي يتهمها دوماً بالسذاجة والتقليد وبسرعة الانبهار بحفنة من المعقّدين الفاشلين. كان ينظر إلى الكتّاب والمبدعين كفاشلين في الحياة لأنّ النجاح – برأيه – هو القوة والبطش والثروة والتحكم بحياة الآخرين. كانت ترى متعته السادية وعناصر من الأمن يهرعون ليفتحوا له باب سيارته الفارهة، ونشوته وهو يحقّرهم من غير سبب... ولم تكن تجرؤ على أن تنتقده، كانت تعتقد أن سلوكه هذا طبيعي لأن عمله الصعب يجعله متوتراً وقلقاً دوماً...

هل صدقت حقاً أن عمله هو حماية البلد من المخربين؟ هل تجرّأت ذات يوم وسألته من أين لك هذه الثروة وأنت ابن أسرة فقيرة؟! كانت أسئلتها مجرد تلميح، وأجوبته لغز، يقول إن خدماته جليلة للوطن...

كانت تعرف وتتظاهر أنها لا تعرف، ترى وتتظاهر أنها لا ترى، تسمع وتتظاهر أنها لا تسمع. في مكتبه تعرف من يزوره، ومن يدفع له الرشاوى والأتاوات مقابل خدمات. قبض الملايين ليسمح لأم أن تزور ابنها المعتقل، وقبض ملايين ليسمح لصاحب مطعم أن يغش ويتجاوز

القوانين... وأوهمت نفسها أنّ ما يقوم به يصبّ في مصلحة أولادها، لقد أمّن لهم ثروة وعيشاً مترفاً ورفاهية يحسدون عليها. هي نفسها قبلت التواطؤ معه: استمتعت بالأسفار ورفاهية فنادق النجوم الخمسة، وبالعطور والثياب والحفلات، وقللت من شأن نوبات البكاء الهستيري والكآبة الخانقة التي كانت تباغتها في أوقات متباعدة. كانت فجأةً تبدأ بالانهيار، تشعر أنها تهوي وتهوي داخل نفقٍ معتم، تسمع أصواتاً متألمة وصراخاً، وترى دماء تنفجر في جراح، وترى سياطاً وآلات صعقٍ كهربائي، ترى نفسها مع آلاف تعرف أنهم في أقبية التعذيب التي يسيطر عليها زوجها. تبدأ بالبكاء الهستيري متعجبةً من قدرة عينيها على ذرف الدموع لساعات متواصلة، وكان زوجها يرمق انهيارها ببرودٍ وبشيءٍ من شفقة والكثير من الاحتقار، ويقول: والله النسوان بنصف عقل، ماذا جرى لك؟ كنت منذ أيام تتقازفين سعادةً ومرحاً وضحكتك ترنّ ما أحلاها... ماذا حلّ بك؟ لعل هذه الإضطرابات الهورمونية تؤثر فيك أكثر من اللزوم.

أيام من الانهيار والبكاء والإحساس بفقدان الذات، الإحساس بالضياع والتعّهر والقهر، يأتي الزوج مدعوماً بأطباء نفسانيين، يعطونها دواء، يحوّلها إلى خرقة، تجفّ دموعها بالتدريج، ثم تُحاصرها عيون أولادها المتوسلة أن تعود كما كانت الماما المبتسمة. ترنو إليهم من قاع انهيارها، ترنو بوَله... ثم تلبس القناع من جديد وتستأنف حياة التزوير والعهر...

حتى الأطباء النفسانيين والمختصين بأمراض الأعصاب كانوا يخافون زوجها، تشعر بهم كيف يتحدثون إليها بحذر شديد، كما

لو أنهم اختاروا بعناية كلماتهم، لكن عيون بعضهم كانت تفصح لها بالحقيقة، حتى أن أحد الأطباء النفسانيين امتلك شجاعة أذهلتها حين قال لها هامساً: عليك أن تقبلي أنك زوجة رجل يجلس فوق القانون وفوقك، ويمتلك صلاحيات مطلقة، إن لم تتأقلمي مع دورك هذا ستصابين بالجنون أو الانهيار التام.

لا يمكن أبداً أن تنسى تلك النصيحة أو العبارة، وما نوبات انهيارها وبكائها الهستيري إلا محاولات انقلابية فاشلة من روحها ضد زوجها الطاغية. لم تستطع إسقاط الزوج ولا النظام، فعليها أن ترضى بالهزيمة، وتستسلم لراحة الاستسلام. الحياة معركة ولا يمكن للطرفين أن يظلا في حالة حربٍ مستمرة، على أحدهم أن يرفع راية الاستسلام، وهي رفعتها إكراماً لأحبائها وجوهر وجودها أولادها... لكن ما كان يدهشها أنها حين تستعيد تلك الأيام المروعة من الانهيار التام، فإنها لا تتذكر شيئاً سوى قبضة يده، يتجمد خيالها عن لقطة وحيدة هي قبضته. ياه! لطالما أحست بالذهول المشوب بالخوف من يديه: كان يملك يداً عملاقة، أشبه بقطعة من رخام، بأصابع ممتلئة مستطيلة وأظافر أكبر بمرة ونصف من الحجم العادي للأظافر، وكان يلبس خاتماً عملاقاً من الذهب الأبيض مزيناً بحجر أسود بيضوي كبير، يقول إنها ترمز لعين النسر التي ترى الخفايا. كانت أصابعه توحي لها دوماً أنها خُلقت لتهرس وتسحق، و لم تستطع أبداً الاعتياد على يديه والنظر إليهما كيدي زوج وأب ورجل تعيش معه تحت سقف واحد منذ أكثر من ربع قرن. ظلّ انطباع اليدين مُدهشاً وطاغياً ومخيفاً في كل مرة تنظر إليهما، بل كانت تشعر أن كل قوته وجبروته كامنان في يديه: يدان عملاقتان تولدان في

نفسها دوماً شعور القوة المُنتهكة، شعور من يسطو ويقتحم وينتهك ويخنق ويصفع... وحين كان يداعبها بيديه كانت روحها تنكمش كما تنكمش حلزونة داخل قوقعة، وكانت تحس أنّ تنفسها قد توقف وهي تعي مرتعدةً توغل الأصابع الرخامية العملاقة داخل المناطق الحميمة في جسدها، تشعر أنه يغتصبها بأصابعه... ولكنها كانت تعنّف نفسها على مشاعرها المنحرفة الغريبة، وتخلص نفسها من تأزّم مشاعرها بأنها امرأة غريبة حقاً، وربما لديها لوثة في عقلها...

الشعب يريد وهي تريد. لأول مرة في حياتها تشعر أنها منتصبة، واقفة على رجليها بثبات، تشعر أنّ قامتها كالرمح وتشعر أنها لو مدّت يدها إلى أعلى ستلامس أصابعها صفحة سماء زرقاء متلألئة بنور القيامة. يتملكها إحساس أنها متوحدة مع الحياة، متوحدة مع ذاتها، ومع الشعب الذي يريد... حاجز الخوف انهار، لم تعد تخشى أوسمته وبذلته العسكرية، ولا يده الرخامية العملاقة. لم تعد تفتقد التناغم بين أجزاء روحها، الآن تشعر أنها تتعافى من مرض مزمن هدّها هدّاً... عليها أن ترحم نفسها وتعطي نفسها الوقت الكافي لتتعافى. لا يوجد شفاء دون فترة نقاهة، وسيمكنها الآن، بعد أن أسقطته، أن تتأمله من مسافة: ستكون رؤيتها حقيقية وصادقة لأنه لم يعد داخلها ولم يعد يهيمن عليها؛ فقد تحررت من جاذبيته وطغيانه...

يمكنها الآن أن تضع رجلاً على رجل وتستحضره إلى فضائها النقي وتحاكمه. إنها بحاجة أن تستعيد عدة حوادث من حياتها معه كي تستأصله كلياً من أعماقها، كي تنظف روحها من سمومه المختبئة في طيّات روحها، إنها تدرك الآن جوهر علاقتها به، والمشهد المتكرر أبداً

في علاقتهما. كان رجلاً لا يعتذر، وكانت امرأة لا تعاتب. كيف تنسى يوم اكتشفت أنه يخونها، كانت حاملاً في شهرها الثالث، و لم يمضِ على زواجهما إلا خمسة أشهر حين أرادت أن تفاجئه بهدية عيد ميلاده، قررت أن تزيّن "الشاليه" التي يملكها على البحر بكل أشكال الزينة المبهجة وأن تحضّر المأكولات التي يحبها، وأن تهديه حزاماً من جلد التمساح لأنها تعرف ولعه بالأحزمة...

لم تتوقع أن تجده في "الشاليه" عارياً مع شابة جميلة... جمّدتها المفاجأة ففرت هاربةً وفمها مفتوح على صرخة خرساء لم تستطع حنجرتها إطلاقها. هاجت وماجت بكل أشكال الانفعالات أمام والديها، لكنه استعادها. أكثر ما كان يؤلمها أنها كانت تعرف أنه خلف جنونها وغضبها وإصرارها على طلب الطلاق، كانت تعرف بحدسٍ يؤكّد لها أنها سترجع إليه...

سيستعيدها كما يستعيد صيادٌ سمكةً، تحايل عليها وجعلها تبتلع الطعم، ولكنه كان يتسلى بالفرجة عليها كيف تبلعط في الماء، فيمدّ لها خيط الوهم لتتحرك في كل الاتجاهات، معتقدةً أنها أفلتت من قبضة الصياد، ثم وبحركة واحدة حازمة من يده يقبض عليها ويفترسها...

لم يشعر بحاجة أن يبرر لها خيانته، لم يشعر أساساً أنه يخونها، فمن حقه أن يعاشر ما طاب له من النساء. كل ما قاله لها هو أن لديه قوة جنسية خارقة، وأن فعل الجنس يحرره من توتره الفظيع بسبب عمله في المخابرات. يحدق فيها بقسوة قائلاً: هل تتخيلين الضغوط الرهيبة التي يتعرض لها ضابط المخابرات؟! ما بكِ؟ نحن نحمي البلد، لولانا لحلّت الفوضى والخراب، ثم تلك النسوة مجرد متع عابرة، شيء يريحني

ويمتعني للحظات ثم يذهبن إلى الجحيم، أما أنتِ، أنت رفيقة عمري وأم أولادي، ومن أتأبّط ذراعها أمام الناس... فلا تكوني سخيفة وساذجة وخلّصيني من قصة الغيرة التافهة...

تجرأت وصرخت: ليست غيرة، بل كرامة، أنت تهين كرامتي.

نظر إليها نظرةً جمّدت الدم في عروقها، ولم ينبس بكلمة. تمنّت لو تقول له: أتريد أن أخونك؟ وما شعورك لو وجدتني في أحضان رجل آخر؟

لكنها صمتت، كانت تعرف أنهما غير متعادلين، وأنه يقبض على حياتها كما يقبض على حياة الملايين... وبقيت لأشهر أسيرة كابوسٍ فظيع، بأنه ينهال عليها ضرباً بالحزام الجلدي الأنيق من جلد التمساح الذي أهدته إياه... لعله مولع بالأحزمة كي يسوط بها المساكين الذين يعتقلهم...

أجبرت نفسها على الاقتناع بمنطقه وعلى تبرير خياناته، بل توغلت في تضليل نفسها بأنه يحبها: ألا يكفيها أنه لا يتزوج امرأةً أخرى؟ ألا تعرف أنّ مئات المتملّقات الجميلات يتهافتن عليه؟ ألا يكفيها أنها زوجته الوحيدة؟... عليها أن تشكره حقاً، وأن تترك له تلك الفسحة من الحرية والمتعة، فليضاجع الساقطات طالما أنها زوجته... لكن لِمَ تشعر أنها معطوبة دوماً؟... لماذا لا تشعر أنها معافاة وهي معه؟ لماذا تشعر دوماً بالقرف من نفسها ومن حياتها؟ وهل هناك حالة أصعب من قرف الإنسان من نفسه؟

زلزلتها ثورة الحرية والكرامة. ما أصعب الثورة في الخمسين؟ ترى هل يستطيع إنسان في الخمسين أن يثور على واقعه وعلى نفسه؟!

أليست أصعب أنواع الثورات هي حين يثور المرء على ذاته؟! ظلت لأيام متلاشية في السرير مشلولة من عنف ما يعتمل في داخلها من تقويض لعالم قديم، من خلخلة لمفاهيم سكنت في قلبها لعقود، من قناعات تكلّست وروّضت نفسها بأنها تؤمن بها وأنها تختار ما فيه الخير والمستقبل المشرق لأولادها؟

بعد أيام من تلاشيها في السرير، مذعنةً لسلطة ثورة الكرامة التي اكتسحت حصون قصرها وروحها وتدفقت إليها من الشارع الصاخب النابض بالهوى والكرامة، كما لو أنه قلب كبير، وجدت نفسها تتوق لشيءٍ رائع وغامض، لم تعرف اسمه ولم تعرف أن تطلق عليه اسماً، كانت تحس به فقط، كما أحست بالحركة الأولى لجنينها، يومها تسمرت مذهولةً من روعة هذا الشعور: ثمة كائن حي جديد ورائع وله قلب ينبض في أحشائها. الفرح الغامر الذي أحسته وقتها لا يمكنها وصفه، أحست كما لو أنها كانت تقيم في غرفة معتمة ثم فجأةً خرجت إلى النور. هذا الشعور الغامض والساحر الذي هيمن عليها يشبه كثيراً إحساسها بحركة الجنين في أحشائها: ثمة خلق جديد، متعمد بالطهارة... قفزت فرحاً، لقد اهتدت إلى ما عجزت عن تسميته، إنها تتوق إلى الطهارة، أجل، هذا ما تتوق إليه، طريق الطهارة، تحاول أن تتلمسه كأعمى يتلمس طريقه في الظلام. انبثقت كلمة طهارة من نفسها كفقاعة، وأدركت، والخزي يجللها، كم انتقدت هذه الكلمة، بل كيف غابت من قاموسها لسنوات، بدت هذه الكلمة غريبة لكنها تُعرّي عالم الدنس والفساد والعهر الذي أحاطت نفسها به بحجة أنها امرأة واقعية تهتم لمصلحة أسرتها. الطهارة، يا للوقع المذهل لهذه الكلمة كما لو أنها حصاة تسقط

على سطح بحيرة أعماقها الآسنة الراكدة، فتخلف فيها دوائر متسعة ومتكاثرة من الوعي!...

جعلتها هذه الكلمة تُصاب بصدمة الصمت. كانت ذاهلة وحائرة، وانتقلت إلى حالة غريبة من التوق إلى الصمت التام. لم تتحمل أن يخدش صمتها أيّ صوت حتى عمدت إلى التخفيف من صوت تنفسها، لأنها تؤمن أن من قلب الصمت العميق تولد الحقيقة ومن جوفه يتشكل الكلام: الكلام المُحيي...

لم يكن صمتاً بمعنى انعدام للأصوات، بل صمتٌ مشحونٌ بقوى عظيمة، صمتٌ يمتلك قدرة الكشّاف المزوّد ببوصلة لتحديد الاتجاه في غابة الروح المعتمة...

صارت تكرّر كلمة طهارة كما لو أنها تريد أن تفكّ طلاسمَ، عليها أن تغوص في أعماقها متسلحة بالقوة الشافية لكلمة طهارة، طهارة الروح أهم بما لا يقاس من طهارة الجسد. إنها تدرك أن وراء دنس حياتها وفسادها شيء ما أسمى منها، في مكان ما داخلها ثمة لؤلؤة مطمورة في وحل الدنس، وعليها أن تحتضر وتموت كي يتحقق هذا الشيء السامي الموجود داخلها، والذي تريده أن يلبسها أو يسكنها وأن تصيره.

ياه، كم تتوق لشعور كادت تنساه: السلام الداخلي! وكما لو أن راحة دافئة من نور مسحت وجهها المتعب وروحها المريضة المحتضرة والمنتظرة للقيامة، تشعر أنها تتعمّد بنور داخلي وتنسكب في قلبها نعمة التواضع، وتحس بالزهد من كل هذا الترف المقرف الذي تحيط نفسها به وتتوهم أنه يسعدها... تغوص في معاني الطهارة وتدرك أنها تعني تغيير النفس والقدرة على مواجهة موتها الروحي. الطهارة دعوة لاكتشاف

الإنسان فينا، وهو السماح لذلك اللامرئي والأسمى منّا أن يقيم فينا. عليها أن تملك شجاعة مواجهة الموت. أجل، فهي ميتة أنيقة. باعت روحها وعهّرت جسدها لزوج ما هو إلا مالك وطاغية. عهّرت روحها وجعلت عقلها يعمل كسمسارٍ يثمّن كل شيء. إنها تفهم الآن ذلك الشعور الكئيب الذي كان ينتابها بعد كلِّ غرض تحصل عليه، من مال أو ذهب أو ألماس أو أسفار، كانت تشعر في كل مرة أنها تموت، كل هدية ثمينة تميتها قليلاً، موت إثر موت إثر موت، حتى تعفنت روحها كلها وصارت امرأةً تقرف من نفسها...

الطاغية خلق في نفسها منعكساً غريباً، إذ يكفي أن تتذكره أو تتخيل وجهه حتى يعصف بها غثيان من احتقارها لذاتها، صار وجهه هو صورة احتقارها لنفسها...

من جوف الصمت تتفجر الحقيقة، تتلطف بها وتأخذ شكل سؤال: ترى كيف يكون شكل العلاقة بين رجل وامرأة حين يكون السؤال الوحيد المطروح دوماً بينهما: هل الآخر هو سمٌّ أم دواء؟ كان زوجها سمّاً، لكنها أجبرت نفسها على الاعتقاد أنه دواء!! و لم تكن يوماً حبيبته وزوجته بل رهينته، وكانت تشعر أنه قادر – فيما لو تمرّدت على ما أرادها أن تكون عليه – أن يسحقها كما يسحق حشرةً بحذائه.

فكّرت أنها كانت تردّد لنفسها دوماً أنّ إحساسها به كما لو أنه طائر الرخّ يطبق على فريسته. لم تكن قد رأت طائر الرخ إلا في الصور، لكن الانطباع الذي كان يخلّفه في نفسها قويٌّ وعظيم التأثير، انطباع بالهيمنة المطلقة بقوة طاغية مباغتة تشلّ المخلوق المسكين الذي لا يعرف أنه سيتحول إلى رهينة...

الآن، بعد أن أسقطت الطاغية ونظامه من حياتها وكيانها، تدرك أن أساس نجاحه في الهيمنة عليها وامتلاكها لم تكن قوته وسلطته فقط بل يأسها. لعله أدرك أنّ يأسها أو خوفها من نفوذه وسلطته سيسهّلان عليه الاستحواذ عليها والهيمنة على أفكارها ومشاعرها. الآن تشعر أنها في بستانٍ مهجور، وحيدةً متعبة مشوشة التفكير، تتألم من سنوات عمرها التي هدرتها تحت سطوة طاغية، وكيف مرّت سنوات عمرها دون أن تبذل أيّ جهد لترميم نفسها المُنتهكة ورأب تصدعاتها... كمن يترك جروح روحه عارية، مشرّعة حوافها النازفة للهواء، دون أن تستنهض قوى ذاتية لمساءلة نفسها إلى أين وأيّ طريق تسلك؟ كانت تقلّب أيامها بلا مبالاة كما تقلّب صفحات مجلات الأزياء والمجوهرات...

من قاع الضياع واليأس والعهر انبثقت الفقاعة العجيبة، فقاعة الطهارة، فقاعة أشبه بالخميرة التي تكفي نقطة منها كي تغيّر الحياة من حولها، فقاعة الطهارة عرّت موتها، لكنها قدمت لها ضوءاً كاشفاً. فكّرت أنها تعيش على يقين أنها ستنام وستنهض صباحاً، ياه كم كانت واثقة من أنها لن تموت بل ستستيقظ كل صباح! فلِمَ لا تؤمن بالبساطة ذاتها والتسليم ذاته بأنها يمكن أن تقوم من موتها الروحي بالبساطة التي تستيقظ بها كل صباح.

منذ اندلاع ثورات الكرامة والحرية ما عاد في إمكانها تجاهل ما يعتمل داخلها. إنها تعيش أزمة وجدانية حقيقية، تريد أن تفرّغ ذاتها من كل العناصر الغريبة عنها، عن جوهر كيانها؛ تريد أن تتقيّأ ذاتها؛ تريد أن تفتح مصراعي صدرها وتدلق محتوياته خارجاً، كما تفرغ خزانة من محتوياتها، لتمتلىء بذلك الأسمى الذي تحس به. بدأ شعورٌ واهنٌ دافىء

يُشعرها أنها تحب نفسها وأنّ عليها أن تحب نفسها إذا أرادت أن تبرأ من سموم الطاغية وسطوته. آمنت أن لا شيء يهزمُ الخطيئة سوى الحب، وهو وحده يحوّل كل المشاعر الهدّامة إلى مشاعر خلاقة...

تنظر إلى مرحلة تحوّلها بانبهار؛ ترى الموت وترى الحياة، كما لو أنها منشطرة إلى قسمين: قسم منها ميت وقسم حي. الوجود هو موت وحياة، لا تميّز هل هي أقرب إلى الحياة أم إلى الموت، لكن ثمة سر: الموت والحياة كلاهما محتمّان، وكلاهما سرٌ. ترى ما علاقة الموت بالحياة، هل هما خصمان أم حبيبان؟

ولماذا تطرح أسئلة تفوق إدراكها؟

إياد

يسكن إياد في جنات الخلد، هذا ما تؤكّده النسوة لأمه المفجوعة بموته. الأم في دنيا أخرى، معلقة بين الأرض والسماء، لا تعرف إن كانت أقرب إلى جثة ابنها الذي استقرت رصاصتان في قلبه، أم هي أقرب إلى السماء حيث روحه تسكن جنات الخلد كما تؤكد لها النسوة المُعزّيات...

تطفو الأم في فضاء، صارت امرأة أخرى تماماً غير المرأة التي كانتها، إنها الآن أم الشهيد وعليها أن تعدّل نفسها لتصير ما تصيره أمهات الشهداء. خطر ببالها، رغم الألم المروع الذي تحسه، أنّ ما عاشته لم يكن حياة، كما لو كان فكاهة أو تمثيلية، ما عاشته كان تهجئة لحياة، وعليها أن تعيد تفسير كل ما مرت به وكل ما أحسته من فرح أو حزن أو قلق أو طمأنينة على ضوء شهادة ابنها...

لكن، لِمَ تبكِ النسوة على الشهيد؟ انتفضت بين جموع المعزين وضربت عَلى صدرها بقوة، وشقّت قميصها فتناثرت الأزرار أرضاً وأحدثت صوتاً معدنياً ناعماً، صرخت: طيّب لو أنه قُتل في فلسطين، لو أنه كان يحارب الصهاينة؟ لقلتُ إنه شهيد، لكنه قُتل هنا في وطنه، طيّب من قتله؟ استشهد مقابل ماذا؟...

ما معنى أن أنجب طفلاً أربّيه وأكبّره وأتباهى به مهندساً جميلاً ناجحاً، وأحلم أن أراه عريساً وأن أفرح بذريته، ما معنى كل تلك المشاعر والأحلام إن كان سيقتل برصاص من دون ذنب ولا جريمة؟...

تبكي النسوة ويؤكدن لها أنه يسكن الآن جنات الخلد.

تلاشت الأم المفجوعة، لم تعرف أنها كانت تتهاوى لولا إحساسها بالمخدات تسندها، حاصرنها النسوة بالمخدات، حشرن جسدها المتكوم من الألم بين كومة من المخدات وصلين لله أن يمنحها الصبر، وأكدن لها أنه يسكن جنات الخلد...

تمددت أم الشهيد على الأريكة محملقةً في الظلام، كل ما حولها ظلام، كانت تشعر أن جسدها ممتلئ بثقوب كتلك التي يحدثها الرصاص في الجسد، بأي عقل وأي منطق ستقبل موت ابنها، موت مجاني. كان من المفترض أن يُسرَّح من الخدمة العسكرية منذ أسبوعين، لكنهم احتفظوا به، ترى لِمَ احتفظوا به؟ هل لأن قدره أن يموت؟ كان وابل من الرصاص يجتاحها ويكتسحها، هذا ما يفرزه خيالها دوماً. انطوت وأنّت وشعرت بيد تمسح وجهها بماء الورد... كما كانت تمسح وجه إياد حين يتوتر ويخاف قبل الامتحان.

كان يسخر منها ويقول: لازم يعطونك براءة اختراع! من علّمك أن ماء الورد يخفف التوتر...

تضحك وتقول: بالله عليك ألا تحسّ براحة واسترخاء بعد أن أمسح وجهك بماء الورد؟

فيقول ضاحكاً: لا، لا أشعر بشيء.

تضمّه وتقول: أنت كذاب.

يقبّل يديها ويقول: يداك يا أمي تشعرانني بالراحة وليس ماء الورد.

انكمشت واتخذت وضعية الجنين. ماء الورد يفوح بشذى الورد. تخيلت ورداً تنزف دماً غزيراً، إنها ترى النزيف، تراه وتحس بملمسه اللزج الساخن، نزيف يتفجر من صدرها، لا تصدق، لا تصدق أنها لن تمسح وجه إياد بماء الورد بعد الآن. كل ما حولها تمثيلية، سوف يدخل الآن بقامته الفارهة، وابتسامته التي تضيء وجهه وضحكته الرنانة التي تكشف عن أسنانه البيض المنضّدة، ويقول لها: شو طابخة اليوم؟...

ستهلل فرحاً وهي تملأ صحنه بطبخها الذي يحبه كثيراً، والذي لم ينسَ مرة واحدة أن يشكرها قائلاً بلهجة ممطوطة: يسلموا إيديك... فكرت، وهي متلاشية مخدرة من الألم ومن المورفين، أنها لم تطبخ، ماذا ستقول له؟ لم أطبخ لك ياحبيبي لأنك مت، لأنك استشهدت من أجل اللاشيء، لأنّ يداً غليظة باطشة اقتلعت وردة يانعة من جذورها، لم تشمّها، ولم تزرعها، ولم تهدها لأحد، ولم تحنّطها كرمز للحب والجمال، بل سحقتها بحقد وشراسة...

تتناهى أصوات وتفوح روائح ثقيلة، روائح طعام طازج مطبوخ لتوه، تنخطف إلى هوة العدم وتسمع صوت، بل أصوات: الأكل على قدر المحبة...

إنهم يأكلون عن روح ابنها، عن روح الشهيد... أحست أنها أصبحت خفيفة، أخفّ من الهواء، وأنها بدأت تطفو، لم يعد جسدها ممدداً على أريكة، لم تكن في المكان أبداً ولا في الزمان، كانت في فضاء ساحر لا يحكمه زمان ولا مكان، كانت ترى روحها قبل أن تتجسد في جسد، قبل أن تنبثق من بذرة في رحم، كانت تتوحد مع روحها

الأزلية، وكانت ترى روح إياد قبل أن تحمل به...

الآن تبدأ الحياة الحقيقية حيث الأرواح تتمايل متأنقةً، لا ألم ولا وجع، ولا قتل ولا موت ولا مرض ولا رصاص قادر على قتلها... تنفض الأرواح عنها اللحم والعظم والجلد، لا تطيق الأرواح أمراض اللحم وخشونة العظم وأوجاع الجلد، تريد أن تسبح في فضاء نقي...

كانت تبكي دموعاً سخية وهي تشعر أنها روح تعانق روح ابنها... أمكنها أن تشعر بذلك العناق الحقيقي وأن تشم رائحة ماء الورد...

ضحكت وقالت له: تصوّر، لم أكن أعرف أن للأرواح رائحة... وأنها تحديداً رائحة ماء الورد...

أول مرة في حياتها تتناول مُسكّناً، لم تكن تطيق الدواء، وكانت تتشاجر مع زوجها وأولادها حين ترفض تناول دواءٍ مضادٍّ للالتهاب ومسكّنٍ للصداع، تؤمن أن الجسد يعيد ترميم نفسه. لأول مرة تشعر بالعجز وتسمح للطبيب أن يزرقها في وريدها المورفين، كانت تعوي وتصرخ واللعاب يسيل من فمها، وتصرخ كمجنونة باسم ابنها الذي عليها أن تصدق أنه مات برصاصة وأنه لن يعود إليها أبداً... ثبتتها أيدي النسوة، وربط الطبيب شريطاً مطاطياً حول ذراعها، رأت وريدها المحتقن وشعرت بنخزة الإبرة ثم بدأت تطفو في فراغ... تثاءبت بعمق شاعرةً أن أحشاءها صارت كيساً كبيراً ممتلئاً بالهواء، فكرت كما لو أن الفكرة يفرزها عقلها دون جهد منها، بأن من المدهش أن يوجد دواء مسكّن لأوجاع الروح...

أحست بعطش، لكنها لم تملك الهمة لطلب الماء، كانت متلاشية كخرقة، وبدت لمن حولها أنها نائمة في سكينة، لكنها لم تكن نائمة بل

طافية في فراغ، فقدت إحساسها بالجاذبية والألم، ابتسمت، فكرت أن أساس إحساسنا بالجاذبية الأرضية هو وزن الألم وليس وزن الجسم، افتتنت بالفكرة، وتخيلت حفاوة العالم والدنيا كلها باكتشافها الجديد. ستقف على منصة، وعشرات الكاميرات تلاحقها، وستعلن الخطأ الفادح الذي صدقته البشرية طوال عقود من الزمن عن الجاذبية الأرضية، وبأن هناك شيئاً واحداً حقيقياً هو جاذبية الألم... يا للتأثير السحري للمورفين! شعرت كيف تحولت، لم تعد أبداً المرأة التي كانتها، بدأ إحساسها بذاتها يتبدل، تشعر تارةً أنها غزال جميل يركض في حقل، وتارةً أنها ساقية جارية، وتارةً أنها ريح ربيعية، ثم تشعر أنها اللون الأخضر... تحس أنّ روحها خضراء، ثم يتبدد الأخضر وتحس أنها بنفسجية وأن البنفسجي هو لون الحياة. كان إياد يحب اللون البنفسجي، وفي مرحلته الابتدائية كان يلحق بها ويريها رسوماته. كان يريد أن يكون مصمم أزياء، وكل رسومه كانت عن رجال ونساء يُلبسهم سترات ملونة و"بناطلين" بنفسجية. عصف ألمٌ رخو في أحشائها، رغبت في أن تتقيأ، تدفق سائل لزج إلى فمها لكنها عجزت عن بصقه، بالكاد تفتح أجفانها، تتمنى لو ترطّب شفتيها بالماء لكن النسوة منهمكات بالأكل اللذيذ، "الأكل على قدر المحبة"، بقدر ما يأكلن يكون حزنهن على الميت.

الميت هو ابنها المهندس ذو الخامسة والعشرين ربيعاً، حبيب قلبها، الميت هو الشهيد الذي قتل برصاصة. من قتله؟ لا تعرف. قدموا لها نظريات متضاربة حول مقتله. تخاصموا أمامها وشتموا بعضهم، وخوّنوا بعضهم، لكنها طردتهم وأخرستهم، ولطمت صدرها وخديها وهي تقول: اخرسوا، ماذا ينفعني كلامكم، كما لو أنكم ستعيدونه حياً.

أتقدّمون لي نظريات حول قتله؟ لقد مات، مات.

اقتربت منها امرأة تحمل في يدها صحناً ممتلئاً بالطعام، وتمضغ قرصاً من الكبّة، مسحت رأسها براحة ثقيلة وقالت: الحمد لله نامت أخيراً، يا جماعة لم تغفُ منذ ثلاثة أيام... همّت أن تقول لها: لست نائمة، لكنها أحست بوهنٍ شديد و لم تستطع أن تتفوّه بكلمة.

هبّت نسمة خريفية مسحت وجهها بحنان. هاجت ذكرى موجعة في روحها. لا، هذه ليست نسمة بل همسة، يترجّع صوته الهامس في أذنها: أمي، أنا عاشق حتى النخاع. تحدق فيه بدهشة وقلبها يرتجف، كما لو أن كلماته أعادتها مراهقة ترتعش لدى أول همسة حب. سألته: عاشق! ومن سعيدة الحظ؟!

يضحك كاشفاً عن صفي اللؤلؤ: لن أقول لك الآن.

تعبس وتسأله: لماذا؟

يضمها بقوة إلى صدره ويقبّل مفرق شعرها الذي غزاه الشيب ويضحك: ما بكِ تهملين نفسك؟ يجب أن تصبغي شعرك، وإلا زاغت نظرات أبي إلى امرأة أخرى.

كان صديقها وابنها وحبيب قلبها. تمسّد شعرها وتقول: أوف ،لا أطيق الصبغة، ثم ألا ترى؟ لقد أفلَ شبابي.

يقاطعها: لا تتخيلين كم أنت جميلة!...

تضحك من قلبها، تضحك حتى تسيل دموعها وتبرطم بكلمات: المحتال، المنافق...

تكرّر سؤالها: من تلك الشابة التي تحبها؟...

يمسّد بزّته العسكرية. تتأمله. ما أجمله! يالفتوته وقوته وجماله!

ويقول: في المرة القادمة سأقول لك...

وعند العتبة، وفيما هي واقفة تمسح يديها الرطبتين بمريلة المطبخ وتحدق في قامته الممشوقة، تشعر بومضات الحب في عينيها فيما هي واقفة عند عتبة الحياة ترمق الجندي الذي تنتظره رصاصة الغدر. التفت إليها. رأت جانب وجهه وغمزها. رأت عيناً واحدة من عينيه الواسعتين الساحرتين، وأحبت الغمزة، وقال: سأقول لك من هي في المرة القادمة، ستحبينها.

غاب، ظلت واقفة لدهر عند العتبة وصدى صوته يترجّع في أذنيها دوائر تسحبها إلى الماضي، لا تعرف كم مرّ من زمن، لكن مرّت كل ذكريات طفولته ومراهقته وشبابه أمامها بأدق التفاصيل، كانت صوراً نابضة بالحياة، صوراً بالصوت والصورة والدفء، حتى أنها شمّت رائحة جوربيه وهو ينزع حذائه، وشمّت رائحة جلده الممتزج بعطره المفضل "باكورابان". حاولت أن ترسم صورة للشابة التي خطفت قلب ابنها، وكيف أنه واثق أنها ستحبها... ترى من هي؟! لقد أحبتها، أحبتها قبل أن تراها، ألم يقل لها: سوف تحبينها؟...

تحسّ بخدرٍ مؤلم في يدها، بصعوبة تنقلب إلى الجهة المعاكسة، تمرّر لسانها على شفتيها، كم تحس بالعطش! لكن لا همّة لديها لطلب الماء. تفكر أنه حنث بوعده ولم يقل لها من هي حبيبته، لكن أتلومه؟ لقد مات؟! ثمة شابة جميلة عاشقة في مكان ما تبكيه بحرقة، كم تتمنى لو تضمها إلى صدرها، كم تتمنى لو تمتزج دموعها بدموع تلك العاشقة وتقول لها: أنت من رائحة الحبايب؟!

يا لسحر الفاليوم! ترى كيف يؤثر هذا الدواء؟! إنه كالثلج يخدّر

الإحساس، تذكرت حين كانت طفلة وحرقت إصبعها بجمرة الأركيلة، يومها أجلستها جدتها في حضنها وطلبت إليها أن تغطس إصبعها المحترقة في كأس ممتلئة بقطع الثلج والماء المثلج. في البداية أحست بصدمة البرودة، ثم سرى خدر لذيذ في إصبعها، وتذوقت الإحساس الرائع بزوال الألم. الآن، وهي متلاشية على الأريكة، بمكنها بمساعدة الفاليوم، مسكّن آلام الروح، أن تشتاق إلى ابنها وتستعيد صوره دون أن تتفجّع، دون أن تلطم وجهها وتنتزع خصلاً من شعرها، دون أن تتمايل على أوتار الوجع الأقسى من وجع الحرق. كان يترك لها قصاصات من ورق لتوقظه فجراً كي يدرس، وكان يطلب إليها أن تنزع عنه الغطاء فيستيقظ. كانا يسخران من طريقته في الاستيقاظ، فتسأله: ماذا يعني أن أنزع الغطاء عنك؟! كيف تتنبه وتستيقظ بينما تكون في عزّ النوم؟

كانت تعبده، تحب أن تتأمله دون أن يشعر بنظرات الوله. كم من المرات ضبطها ترنو إليه كما لو أنها ترنو إلى أيقونة وتصلي. كان يسخر منها مدارياً ارتباكه، شاعراً بدفقات الحب المنفلتة من قلبها دون إرادة منها. ذات مرة سألها: كيف هو حب الأم؟ ارتبكت، قامت بعدة إشارات من يديها عساها تدعمها في تعريف دقيق لما تشعر، لكن لسانها لُجم، وحركات يديها بدت خرقاء، ابتسمت فيما عيناها ترشحان بالدمع وقالت: لا أعرف، لكنه شيء أكبر مني، تصوّر أن الحب أكبر منك، ومع ذلك هو فيك...

ضحك وقال: صرتِ فيلسوفة.

فكرت لو أنها نزعت كفنه عنه سيستيقظ. آمنت بتلك الفكرة. ما الكفن سوى غطاء كلحاف سريره. تتمنى لو تصرخ بالنسوة ليدثروها

بغطاء سريره العابق برائحته، لكن ما أن توقف ذهنها الرخو عند كلمة رائحة حتى غزت رائحة الرصاص أنفها. أين قرأت أن عالمنا هذا ليس سوى جحيم كواكب أخرى... آمنت بتلك الفكرة وهي تتساءل: كيف يكون الجحيم إذاً؟

قد تكون الصدفة وحدها وضعتني في طريق هبة، أو وضعتها في طريقي، متسلحة بشجاعة وهمية وقلب منفطر من الألم أتجاهله كل لحظة، تسكعتُ في شوارع وحدائق المدينة الرياضية في اللاذقية حيث غصّت بخيم بائسة تضم النازحين، مئات الأسر الفقيرة التي نزحت من حلب وقراها. تلتقط عيناي البؤس الإنساني لشعب روّعه القهر والذل والموت، فيما روحي تصارع محيطاً من اليأس والحزن، تلتقط عيناي صورة طابور طويل طويل من رجال ونساء وأطفال يحمل كل منهم طنجرة عتيقة أو وعاءً من البلاستيك، بانتظار حصته من طعام الغداء... بعض الأطفال يبكون من الجوع إذ لا طاقة لهم لانتظار دورهم في الطعام، وبعضهم أصابه الملل فلبس الطنجرة في رأسه كقبعة...

ثمة باعة يفردون بضائعهم على الأرض، بضاعة من أرخص أنواع البسكويت والحلي التقليدية، وشحاطات النايلون، وحفاضات الأطفال... أحد المسؤولين عن النازحين في المدينة الرياضية قال لي إن العدد فاق أربعة آلاف نازح، وإن عدد الأطفال فوق الألف...

أتلصص على الخيم البائسة، محتواها يكاد يكون مجرد فرشات

رقيقة من الاسفنج، وبين الخيم حبال علقت عليها ثياب مهترئة مغسولة...

ثمة امرأة بدينة تخبز على الصاج فطائر بالجبن وبالزعتر والفليفلة. رائحة الحياة هي رائحة الخبز. كنت وسط لوحة البؤس الإنساني السوري، أبتلع المرارة، وأكرر وأنا أشعر أنني أتبخر من الألم: أهذا حال الشعب السوري؟! أهذا حال أحبائي الأطفال؟!...

برودة الخريف صريحة، ولا تبالي بشمس لا تزال تتوهم أنها تدفئ النازحين الحفاة. ثمة امرأة كالشبح تعبر بجانبي حاملة رضيعاً عارياً وقد التهم الصمات مؤخرته ووصل حتى فخذيه، وهو يئن من الألم إذ لم يعد يملك القدرة على البكاء... سألتها: ما به؟... تابعت مسيرها وقالت: كيف سيشفى هنا؟

تفتق عنوان رواية عبد الرحمن منيف في ذاكرتي: الآن هنا، رواية روعتني حين قرأتها عن السجون في الوطن العربي... هذه المرأة ألهمتني كي أجري مقارنة بين رواية الآن هنا، وبين الآن هنا في سوريا...

قد تكون محض صدفة تلك التي جعلت نظرتي تتقاطع لبرهة مع نظرة طفلة في التاسعة من عمرها ترنو إلى المرأة البدينة التي تخبز الفطائر على الصاج... لم تكن طفلة، كانت حزناً ناعماً حياً، كانت جميلة على نحو لا يوصف، في وجهها هدوء ووداعة، وفي عينيها العسليتين شرود، كما لو أنها تتأمل في ما وراء لوحة البؤس السوري... استقطبت نظرتها كياني كله و لم أعد أرى سوى عينيها. أعترف أنني عاجزة عن التعبير عن نظرة هبة بعبارة، حتى لو أعدت صياغتها ألف مرة... هل كانت ترنو إلى الخبز ورائحة الحياة التي كانت تعيشها قبل أن تقذفها قذيفة وتطيّرها

من بيتها الآمن في حلب، وترميها في خيمة عتيقة... إلامَ كانت ترنو تلك الطفلة؟ كانت نظرتها تتجاوز الفطائر الشهية، وتتجاوز طوابير النازحين، وتتجاوز الأشجار التي بدأت أوراقها تتساقط... وكما لو أنها شعرت بتحديقي المفتون بها، التقت نظرتنا لبرهة، ابتسمت ابتسامة خجولة، ربما أنا من بادرت إلى الابتسام... اندفعت إليها، رغبتُ أن أركع أمامها وأقبّل قدميها الصغيرتين القذرتين المحشورتين في شحاطة بالية من النايلون... لكن خفتُ أن تجفل، وضعتُ يدي على كتفها، هزّتني صدمة نحولها الشديد، كانت هيكلاً عظمياً، ودون أن أسألها إن كانت جائعة اشتريت فطائر وقدمتها لها، أخذتها بتردد وخجل، قلت لها وأنا أقاوم غصّة حديد هرست حنجرتي كيد حديدية، كتلك اليد التي انتزعت حناجر تجرأت وصدحت بالحرية:

– كلي، كلي حبيبتي، ما اسمك؟

ردّت بصوتٍ عذب خافت: هبة...

شعرتُ أنها مترددة وترغب في أن ترفض الفطائر، شعرتُ بالصراع في روحها الطفولية لكن ذلّ الجوع انتصر فبدأت تأكل على مهل تقضم قضمات صغيرة...

قلت لها: هل تمانعين أن نجلس هنا. أشرتُ إلى مقعد حجري. قالت: لا.

جلسنا متجاورتين وبيننا كيس الفطائر... كانت تأكل وكنتُ ألتهم كل حركة تقوم بها بعينين عاشقتين لكل أطفال سوريا النازحين، كانوا كلهم هبة، كنتُ روحاً، ترى روح طفلة نازحة، كنتُ أراها بقلبي...

لا تعرف هبة أنّ في روحها الطفولية جرح عميق...

لا تعرف هبة أنّ ما يجعل صوتها واهناً هو حزن وحشي يعجز قلب طفلة عن استيعابه...

كان شعرها ملبّداً كأنها لم تستحم منذ شهر، سألتها من أين هي.

قالت باختصار: من حلب، ثم صمتت... وأخذت تجول بعينيها في الحديقة كما لو أنها تبحث عن ملاذٍ ما، وأنا ألحق نظراتها. يا إلهي! أتمنى لو أعرف المضمون الحقيقي الذي تعبّر عنه نظراتها، لكني شعرتُ أنني أرى من خلال عينيها، وبدت الأشجار حزينة حزناً لا يوصف، كانت أوراقها دموعاً عملاقة متخثرة...

لا تعرف هبة أنها تعيش في بلد الموت... لا تعرف أن ما يجعلها عاجزة عن الكلام إلا بمشقة وبأنها فقدت صفة الأطفال السعداء وهي الثرثرة، لا تعرف أنّ ما أخرسها هو الألم الكاسح الذي هرس براعم الطفولة في روحها، كما هرست آلات الدمار والقتل الوحشية منزلها ومدرستها، وحديقة أحلامها، ودفاترها المدرسية ووسادتها...

كنتُ أحاول ألا أستسلم لشعور العبث الطاغي الذي بدأ يكتسحني. كنتُ مصممة أن أحقق معجزة، أن أجعل هذه الطفلة تبتسم... وكنت مستعدة أن أموت في وطن عشقه الموت من أجل أن أنتزع ابتسامة من هبة...

سألتها في أي صف هي، قالت بإيجاز: الثالث.

– هل تحبين المدرسة؟ ردّت: جداً.

– وهل تدرسون هنا؟ قالت: أجل... الساعة الرابعة بعد الظهر نذهب للمدرسة.

– وماذا تريدين أن تكوني في المستقبل؟ قالت وابتسامة حزينة شعت من عينيها: طبيبة أطفال.

قفزت هبة فجأةً ولحقت قطة، حركة أدهشتني، ذكرتني أنها طفلة حقيقية، وليست تمثالاً للحزن الطفولي. هربت القطة و لم تتمكن هبة من التقاطها أو مداعبتها...

سألتها: هل تحبين القطط؟

فجأةً تدفقت بالكلام، لم تكن تكلمني، بل تكلم القطة صديقتها...

قالت: كنتُ أحبها جداً، اسمها جميلة، أنا سميتها جميلة لأنها كانت جميلة جداً، كان عمرها شهر حين وجدتها في الحديقة قرب منزلنا، جائعة ووحيدة، ورجوت أمي أن نصحبها إلى البيت، لكن أمي رفضت، فتوسلت إليها وبكيت، فسمحت لي أن نصحبها معنا، سميتها جميلة. ياه ما أجملها! كنت أطعمها، وتنام بجانبي... وكنتُ أشتري لها شامبو خاص بالقطط وأحممها... صدقيني كانت جميلة أجمل قطة في العالم...

صمتت هبة، كانت تقاوم شعوراً بالاختناق وصلني من حركة عفوية قامت بها. أخذت أصابعها النحيلة تمسّد عنقها. صمتت لأنها اضطرت أن تسكت إذ وصلت إلى حافة البكاء... كانت تريد أن تبكي في حضني لكنها تعلمت أن تدفن مشاعرها كما دفنت أحلامها تحت أنقاض بيتها...

سألتها بمرح مصطنع: وأين هي جميلة الآن؟

قالت بمشقة: لا أعرف، لقد نزحنا من حلب. كنتُ أريد أن أصحبها معي لكنها اختفت قبل نزوحنا بساعات. لعلها ماتت...

ارتعش فم هبة رعشات قصيرة سريعة، لكنها سيطرت على انفعالها و لم تذرف دمعة. ثم أخذ جسدها يتمايل قليلاً كما لو أنها تستسلم لهدهدات الحنين والشجن... كان كل توقها لحياتها الآمنة القصيرة قد تجسد في شوقها لقطتها جميلة...

جازفتُ وسألتها إن كانت قد شاهدت الدبابة والطائرة والقصف...

نظرت إليّ تتفحصني، ولما اطمأنت إلى حبي الكبير لها قالت كما لو أنها تردد كالببغاء ما قلته: هل شاهدتُ دبابة وطائرة؟ أجل... رأيت الدبابة تقصف بيوتاً قرب بيتنا... كانت تتكلم والحروف تنزلق من فمها، تنزلق من مكان ما في داخلها المهشم. لم أكن في حضور طفلة، كانت هبة تمثل حالة من الثمل بالذعر، هذا ما كانته تماماً وإلا ما وصلني هذا الشعور، طفلة السنوات التسع كانت ثملة بالمأساة، مروعة وعاجزة عن الاستيعاب، عاجزة عن فهم معنى دبابة تقصف وطائرة تقصف... وبشر يموتون أمام نظرها... عاجزة عن استيعاب لماذا تهدّم بيتها الآمن، ولماذا تنام في خيمة...

أمسكت يدها وقلت: هيا نتمشى، فالحديقة جميلة أليس كذلك.

هزّت رأسها موافقة...

قلتُ لها: تعالي نشتري بعض الأشياء، هل تحبين الأساور.

هزت رأسها موافقة...

كانت فرحتها بالأساور الرخيصة الملونة واللماعة تفوق الوصف، ثم ملأت كيساً بأنواع البسكويت وقلت لها: هذا لك...

شدّت يدها النحيلة على يدي شاكرة، وفجأة قالت لي: نحن لا نتعشى، ننام بلا عشاء...

كل كلمة تقولها تتحول إلى طعنة في قلبي...

سألتها: لماذا؟

قالت: يقولون إن عددنا صار كثيراً، نحن نفطر فقط ونتغذى.

وماذا تفطرون؟ بيضة أو قطعة جبنة مثلثات.

هممتُ أن أسألها إن كانوا يأكلون فاكهة... فتراجعت عن سؤالي الغبي، أية فاكهة وهم ينامون بلا عشاء!

كنا وجودين مترعين بالألم نمشي متشابكي الأيدي في حديقة تنزف أوراقها. شهداء في خريف الثورة، يا للثورة التي سيكون ثمنها موت آلاف الشبان ونزوح الملايين... يا للثورة التي سيكون ثمنها أن تقصف الطفولة وتنتهك وتذبح، يا للثورة التي سيكون ثمنها أن تنام هبة بلا عشاء، وأن تحس بالذنب كونها لم تستطع حماية قطتها...

وقفنا أمام بائع أحذية رخيصة من النايلون قلتُ لها: جربي حذاء... ترددت، هبة لا تطلب، أذهلني تهذيبها ورقيها. قلتُ لها: هيا جربي...

نزعت شحاطتها العتيقة وأخذت تجرب، عادت طفلة. فرحتُ فرحاً لا يوصف حين وصلتني سعادتها أنها اختارت حذاءً من النايلون زهري ومزين بزهور صغيرة ملونة. كانت سندريلا حقيقية. فرحتُ فرحاً طاغياً وأنا أدرك أن جانباً في قلبها ما زال ينبض بطهارة الطفولة وحب الحياة... وأن آلات الدمار لم تقصف كل زهور روحها الطفولية...

قالت وهي تبتسم: شكراً...

شع وجهها بابتسامة، ضممتها وأخذت أقبل رأسها وشعرها الملبد... وحين أعدتها إلى خيمتها ضممتها بقوة إلى قلبي وتمنيت لو أهديها روحي.

كانت تحمل بيد كيس الفطائر، وباليد الأخرى الحذاء الجديد الرخيص...

وقفت أتأملها تمشي بجسدها الشبحي، بخطوات ثابتة بطيئة كأنها تجرجر خلفها حزناً ناعماً رقيقاً مثلها، وقبل أن تدخل الخيمة البائسة التفتت إليّ وأرسلت لي قبلة في الهواء، قبلة طيرتها براحتها فشعرتُ برشقة من نور إلهي أضاءت قلبي...

قلت لها: سنلتقي، سنلتقي يا هبة...

لوحت لي بكيس الفطائر مبتسمة.

الثالثة فجراً

لم تستيقظ العصافير بعد! ردّد هذه العبارة مراراً لنفسه وهو يُحضّر القهوة، تجاهل غيظه بسبب استيقاظه المبكر جداً، الثالثة فجراً... يا إلهي ماذا ستفعل بالزمن يا فواز! كيف ستمرر ساعات يومك الثقيل، ليتك تستطيع تمريرها كما لو أنها حبات مسبحة تلهو بها، هكذا كان يخاطب نفسه مستنسخاً من روحه صديقاً.

الثالثة فجراً، ما الذي يوقظه في هذه الساعة!؟ وماذا سيفعل بزمنه! ماذا يفعل في زمن تحوّل إلى مقبرة جماعية كبيرة، يتساقط فيها مئات السوريين كل يوم؟! كان يشعر أن الزمن يفترسه، ويحس أنه مروّع من عقارب الساعة التي تسحله، فيتخيل نفسه مربوطاً إلى دبابة تجره في شوارع وأزقة مدمرة... استوطنت هذه الصورة مخيلته وأمعنت في تعذيبه، كما لو أن هناك عدواً مختبئاً في روحه.

فمنذ بداية الأزمة في وطنه الحبيب سوريا بدأ يلاحظ أن ثمة هوة سحيقة تفصله عن نفسه، ثمة هوة تتسع يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر بين ما كانه وما يصيره: إنه يتحوّل إلى إنسان غريب، إلى كائن، قد لا يجوز أن يسمى إنساناً، إلى كائن أهم صفاته أنه يخشى الزمن ولا يطيق

الليل ولا النهار، ولا الشروق ولا الغروب، لأنه لم يعد من فرق بين ليل ونهار، وبين برد وحر، اندمجت كل تلك المعاني المتضادة وانصهرت في كلمة واحدة: القتل.

تحنّط على الأريكة ذاتها التي يجلس عليها كل صباح، سمّاها أريكة الساعة الثالثة فجراً، لأنه ومنذ عمر انفجار سوريا صار يستيقظ الثالثة فجراً ويجلس على الأريكة إياها، يرشف قهوته ويعارك زمناً يفترسه، محاولاً أن يحصّن نفسه بعدم الاكتراث، وبأنه لا يزال متوازناً وقوياً في مواجهة وطنٍ يُدمّر، وشعبٍ يُقتل، وعقارب ساعة تسحله من الألم إلى درجة أنه آمن أن كلمة عقارب الساعة مشتقة من، أو هي ذاتها، العقارب السامة التي تلدغ وتُميت...

تحوّل كيانه كله ووجوده إلى كيان معلّق بكارثة وطن ينزف منذ سنتين ولا أحد يبالي... رشف القهوة شاعراً أنه يشربها لغاية وحيدة هي أن يؤكد لنفسه أنه حي، لكنه مع كل رشفة كان إحساسه بتعاسته ويأسه يتعاظمان، وما أن انتهى من شرب فنجانه الأول حتى أحس أن تعاسته تحوّلت إلى درع ثقيل يلبسه...

مع فنجان قهوته الثاني أخذ يقلّب محطات التلفاز، حاذر سماع نشرات الأخبار إذ لم يستعد بعد لسماع النشرة اليومية لعدد القتلى في سوريا، ولم يستعد بعد لتستقبل عيناه صور القتلى والدماء تنزف من أجسادهم المخردقة بالشظايا والرصاص. استوقفه برنامج وثائقي عن الليالي البيضاء وتفرّج مذهولاً على عظمة مدينة بطرسبورغ، لكنّ الشاشة سرعان ما انقسمت إلى نصفين، عين تتابع سحر تلك المدينة وعين تعرض له مخزون ذاكرته من صور القتل والدمار في وطنه الحبيب،

ثمة بثّ متواصل في روحه لا يتوقف أبداً...

كان البرنامج الوثائقي عن الليالي البيضاء ساحراً وشيقاً لدرجة أنه ابتسم، وتذكّر أنّ هناك حياة. أذهله اكتشافه أنه في مكان ما هناك حياة، هناك بشر سعداء يسافرون في رحلات سياحية ويضحكون ويشترون هدايا لأحبتهم... لكنه فجأةً تجهم وانقبضت ملامحه و لم يعد يتحمل رؤية هؤلاء البشر السعداء، والسياح الذين يتجولون مبهورين بعظمة بطرسبورغ وتعليقاتهم على الليالي البيضاء، أحسّ أن السعداء ثقيلوا الظل، أحسّ أنه مُهان ومُحقّر بعيشه الذليل وبأن كلمة ذل لا تكفي لوصف حياته...

مع فنجان قهوته الصباحية الثالث كان يقلّب مقالات وتعليقات على الفيسبوك، وثمة سؤال يتشكل ببطء في عقله ويهمس بأذنه: إلى أين يمضي عمرك يا فواز؟! أمكنه أن يحس بصوتٍ حقيقي ودافىء قادم من عتمة روحه أو عتمة الليل يسأله: إلى أين يمضي عمرك يا فواز؟!

ارتفع منسوب حزنه حتى صار يرشح من جلده كالعرق، وأخذ يقرأ: الحرية للمعتقل فلان الفلاني، كل يوم يقرأ ويسمع عن معتقلين، فلان اعتقل لأنه ناشط على الفيسبوك، فلان اعتقل لأنه كتب مقالاً لم يرضَ عنه هؤلاء، هؤلاء الذين لا يعرفهم أحد لكنهم يملكون كل الصلاحيات للاعتقال...

أحس بوجع قاسٍ لم يعرف طبيعته، هل هو وجع جسدي أم نفسي؟ تشوشت علاقته بنفسه لدرجة ماعاد بإمكانه فهم حقيقة مشاعره، وأين يكمن وجعه. صار يشكّ أنه صار أبلهاً، إذ صارت تلتبس آلام روحه بآلام جسده، فذات يوم، وبعد أن صعق من صور مجزرة أطفال الحولة،

وجد نفسه يسرع لابتلاع دواءٍ مضادٍّ للصداع، رغم أنه لم يشكُ أبداً من صداع لكنه اعتقد أن هذا الدواء قد يُسكّن آلام روحه...

اعتقال... اعتقال، هذا ما يوقظه الثالثة فجراً قبل أن تستيقظ العصافير. أحسّ براحة من يكتشف حلَّ لغزٍ طالما أرّقه...

هاجمته ذكريات طازجة كعاصفة وانهمرت أمامه كمطر من رصاص، فالمطر في سوريا هو من رصاص. مرّت وجوه سريعة في ذاكرته، وجوه مدموغة بالذل والخوف والألم اللامحدود، وجوه تحكي قصصاً عن معتقلين. كان ينصت إلى هذه القصص بعينين مبحلقتين كما لو أنهما تحدّقان في الذعر النقي الصافي غير المغشوش... فلان اعتقل لأنه وضع على موبايله أغنية "يا حيف" لسميح شقير... فلان اعتقل لأن ابن عمه التحق بالجيش الحر... فلان اعتقل لأن سلوكه يمس بهيبة الدولة...

حاول أن يتخيل كيف تكون هيبة الدولة، وكيف يمكن لإنسان أن يمسّها؟! لكن خياله المعطوب لم يفرز سوى صورة فتاة عذراء تلبس ثياباً شديدة الاحتشام وشديدة الإحكام على جسدها، ثياب أشبه بكفن، وكل من ينظر إليها أو يمدّ سبابته للمسها يتهم أنه يمسّ هيبتها...

كان مزاجه قد بلغ حدّاً من الحزن لدرجة الخرس، أخرسه الحزن، بل صار يخشى في الأسابيع الماضية أن يفقد قدرته على الكلام، أن ينسى اللغة ومفرداتها، فما قيمة الكلام وسط لغة الرصاص والقتل؟ وهل يستطيع أيّ كلام أن يؤاسي إنساناً يشهد على تدمير البلاد والعباد بشكل مستمر ومتواصل ومنذ عامين؟!

أجبر نفسه على أن يتكلم، أن يقول أي شيء، مروعاً من احتمال

أن يصاب بالبكم، أن ينسى اللغة، أن ينسى أن اللغة هي التي تميز الإنسان، أوَليس الإنسان حيواناً ناطقاً... وأنه لو فقد النطق سيُختزل إلى حيوان؟...

تلعثم وبرطم بكلمات لم يفهمها هو ذاته، لكنه تمكن أخيراً من صياغة عبارة من الإجابة على سؤال: إلى أين يمضي عمرك يا فواز؟...

طلع الجواب من عمق سحيق معتم في روحه: حياتي منتهية الصلاحية...

افتتن بالجواب وهنّأ نفسه على تلك الإجابة التي جعلت معنوياته ترتفع، بل تقفز عالياً لأنه تأكد أنه إنسان، وأنه، رغم تحطم معنوياته ويأسه، لا يزال قادراً على التفكير والمحاكمة...

فكّر وهو يسجّل على ورقة بجانبه أسماء المعتقلين الجدد: عادة غريبة لم يتوقع أنه سيدمنها منذ اندلاع الثورة في سوريا، وهي أن يسجل في دفتر صغير أسماء المعتقلين، وعددهم...

لم يكن يدرك معنى تلك العادة، لم يكن يدرك أنه ينتظر اعتقاله هو، وأن كل وجوده وكل زمنه صار مجرد انتظار لتلك اللحظة التي سيتم اعتقاله فيها... لدرجة أنه ضاق ذرعاً بالانتظار، بل صار يودّ لو يصرخ في الشارع وبصوتٍ عالٍ: لماذا هذا التأخير في اعتقالي، ماذا تنتظرون، ماذا تنتظرون؟ لا ترهقونني بالانتظار، اعتقلوني وأريحوني...

أصدرت حنجرته حشرجات جافة، دمعت عيناه وهو يفكر أن هذه الحشرجات هي صوت أحلامه المحتضرة، وأنه واعٍ تماماً لحقيقة عيشه الذليل والمعّفر بالخوف والموت واليأس، واعٍ تماماً أنه واقع في قبضة "الهؤلاء" الذين يتحكمون بحياته، ويملكون صلاحية اعتقاله، كما لو

أنه مربوط بخيط خفي بأيديهم...

وطنٌ يتحول إلى مُعتقل كبير، ومواطن يختزل وجوده في انتظار متوتر وملحّ للحظة اعتقاله...

إنه لا ينتظر شيئاً ولا يتوقع مستقبلاً، ولا ابتسامة، لا ينتظر سوى أن يُعتقل... بل أحس أن كل ما ينشده في وطن ينزف أبناءه هو الاعتقال.

هل أنت مجنون يا فواز؟ سؤال تفجّر في روحه بطريقة مرحة. هل يُعقل أن يكون قد جُنّ؟! وهل يلوم نفسه إذا جنّ أو صار معتوهاً؟! من يقدر أن يحافظ على قدراته العقلية، وألا ينهار نفسياً في وطن تحول إلى مقبرة، وبركة دماء، ومقابر جماعية، وآلاف آلاف النازحين؟! من يقدر أن يصادق دبابة وطائرة وبندقية صارت تنافس رغيف الخبز، وصارت عصب اللاحياة لملايين السوريين؟...

ما الحياة إلا عبئاً لا فائدة منه، الحياة في مكان آخر خارج الحدود السورية، هنا، هنا على الأراضي السورية تعيش اللاحياة...

مسّد وجهه براحتيه وكرّر الحركة مستدفئاً بالحرارة التي يولّدها اللمس، تمنى لو أنّ يداً حنونة تمسح وجهه وتطبطب على كتفه، ولو أنّ صوتاً بشرياً حقيقياً يقول له: بسيطة يا فواز، إن شاء الله محنة وتزول، وما بعد الضيق إلا الفرج.

لا يزال الليل ثقيلاً، لا تزال العتمة معششة في قلبه... عاد إلى أريكة الساعة الثالثة فجراً، استرخى عليها وأغمض عينيه. كان يحاول مخلصاً أن يلملم شتات نفسه بالتأمل الصامت، التأمل في معاني كلمات يؤمن بها بكل ذرّة من كيانه، الحرية والكرامة، ياه يا للفعل المُسكر لتلك الكلمات! كيف يمكن للكلمات أن تحمله على أجنحة واسعة وتعبر به

حدوداً وحواجز، وتنقله إلى عالمٍ نقيٍّ يشعّ بالألوان، واللون الأحمر فيه هو لون الأزهار فقط...

كم يرتاح حين يغمض عينيه! يشعر أنه يغلق نفسه عن العالم الخارجي، عالم القتل الوحشي والتدمير الوحشي، يغلق نفسه ليرى قلبه، قلبه الطافح بالحب والإيمان بالحرية والكرامة... ياه يا فواز! والله يحق لك أن تفخر بقلبك...

سمع زقزقة ناعمة تلتها زقزقات أقوى، لقد استيقظت العصافير...

شعر – دون أن يفتح عينيه – أنّ ثمة نوراً أشرق في الخارج وقلبه، رغم العتمة الكثيفة...

سخر من مشاعره وهو يسأل نفسه: فواز، هل سيتم اعتقالك اليوم بعد نشر هذه القصة؟

الرجل الصرخة

متى ستنفجر يا أمير؟! لم يعد يتفوه إلا بهذه العبارة مخاطباً نفسه بغضبٍ ساحق. كان يشعر تماماً أنه قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في أية لحظة... وما أن يدخل بيته حتى يبدأ بصراخٍ هستيري كما لو أن كل قوته تتحول إلى صراخ، كما لو أن كيانه كله يتحول إلى صراخ، بل يشعر أن عضلاته تذوب وعظامه تتحلل، ودمه يتبخر، ويصير الرجل الصرخة...

لم يعد أمير يتعرّف نفسه، يراقب كيف يتحول إلى رجل غريب، ويعرف أنه لا يملك أي شيء تجاه هذا التحول، لكن تلك الحالة التي وصل إليها مؤخراً بدأت تقلقه وتثير استغرابه: ما معنى أن يتحول رجل إلى صراخ؟... وأي هوى لا يقاوم يسيطر عليه حتى ينفلت بصراخٍ مدوٍ ما أن يدخل بيته؟ صراخ بسبب ودون سبب، إذا رنّ الهاتف انفجر بشتائم مدوية، وإن لم يرن انفجر بالشتائم ذاتها، إذا كان طعامه لذيذاً انفجر بالسباب المدوي، وإن لم يكن لذيذاً انفجر بالسباب والشتائم، لم يكن يعلم طاقة الصوت، صارت حنجرته تغويه أن يصرخ بقوة وعزم أكبر كما لو أنه مصمم أن يمزق حباله الصوتية...

ومن عنف انفعاله صار يفقد التحكم بكلماته التي هي شتائم فاحشة

وتطال كل شيء في الحياة حتى المقدسات، حتى ذاته. كان يسخر من نفسه في حمى انفعاله ويلعن روحه الخانعة الذليلة، واسمه المهزلة، أمير! هل أنت أمير يا تافه؟ أمير على ماذا؟! على مملكة الذل، على حياة حقيرة ذليلة، ما أنت سوى أمير الذل يا حيوان...

هكذا كان يحدث نفسه في ذروة نوبة غضبه وصراخه الجنوني، وحين كان يهوي على الأريكة أشبه بخرقة متلاشياً من التعب، لاهثاً من نزف كل طاقته في صراخ هستيري، كان يتساءل فزعاً لماذا يصبّ نقمته على نفسه بتلك الطريقة؟! وهل يوجد إنسان يحتقر نفسه ويسخر منها ويحطّ من قيمتها كما يفعل هو مع ذاته؟! أليس من المفترض أن يستنسخ من روحه صديقاً مُؤاسياً مُعزياً، بدل أن يستنهض شخصاً لئيماً سادياً من روحه يعنّفه ويسخر منه طوال الوقت؟...

يحاول أمير أن يفهم لماذا تحوّل إلى صراخ. يحاول، رغم عقله المرضوض والمشلول مم شهد وعاين من إجرام وترويع على مدى عامين من الثورة السورية، أن يفهم المراحل والعوامل التي حولته إلى الرجل الصرخة، وما معنى أن يصير وجوده وبصمته في الحياة مجرد صراخ، لشدة قوته يشعر أنه يزلزل الجدران ويكاد يفجّر قلبه ويكسر عظام صدره...

في مرات قليلة، وفي ذروة نوبة الصراخ، كان أمير ينتبه إلى أنه يبكي، لم يكن يعرف أنه يبكي، فانفعالاته الجنونية الأشبه بإعصار كانت تعيقه عن الالتفات وإدراك ما يحدث له، ولولا أنه كاد أن يختنق بذلك السائل الحار الذي اندلق في حنجرته الزاعقة بالشتائم لما عرف أنه كان يبكي...

لأشهر لم يهتم أمير أن يفهم لماذا يصرخ بتلك الطريقة، لم يتساءل

حتى ما فائدة هذا الصراخ، فلا حزنه ولا قلقه ولا يأسه ولا ذعره يقلّ ولو لدرجة بسيطة بعد تلك النوب المروعة من هستيريا الصراخ، فلماذا يصرخ إذاً؟!

وجد نفسه بمواجهة هذا السؤال بعد أشهر من تلك الظاهرة التي خجل أن يبوح بها حتى لأقرب الناس إلى قلبه، وإلى صديق عمره مدمَّر الروح مثله، المروَّع مثله، ومثل شعب بأكمله...

في لحظات الهدوء الأشبه بالإغماء، والتي تعقب نوبات الصراخ، يتساءل أمير: ما معنى كل هذا الصراخ؟ وهو يعرف أنه ليس تنفيثاً عن غضب أو قهر أو حزن، يعرف أن حالته تبقى كما هي قبل الصراخ وبعده، يعرف أنه حطام إنسان، ويعيش حطام حياة، يعرف أنه رغم أن السقف فوقه لا يزال متيناً، فإنه يتوقع كل لحظة هبوط برميل ممتلئ بالمتفجرات فوقه، أو قذيفة تطيح به وبالأمان الزائف الذي يعيشه، يعرف أن فراشه الوثير ومخدته المعطرة دوماً بعطر الصنوبر قد تُنسف بلحظة ويجد نفسه في خيمة أو في العراء... يعرف أنه يتشارك هذه المشاعر وتلك الحالة النفسية المحطمة مع ملايين السوريين، مع شعب بالغ العالم كله في إذلاله وكسر روحه وقتله... العالم المجرم الذي هو الشيطان متجسداً، ينتظر بفارغ الصبر واللهفة والسادية أن تغرق سوريا بالسلاح الكيماوي، يحذّر من استعماله، ظاهرياً، لكن هذا التحذير مبطن باستجداء وتوسل لاستعماله...

يعرف أمير أن صراخه لا يفيده شيئاً، لا يريحه حتى، ولا يخفف احتقان روحه، فلماذا يصرخ؟!

لم يكن متحمساً في البداية ليعرف سبب تلك النوب المروعة من

الصراخ التي سيطرت عليه في الأشهر الأخيرة، لكنه، حين بدأ يحاول أن يوقف نفسه عن الصراخ، ذُهل من أنه عاجز، وروّعه أنه مهما أمَر نفسه أن لا يبدأ حفلة الصراخ أو أن يوقف تلك النوبة، فإنه عاجز...

أحسّ بخوف ليس خوفاً من الجنون أو الانهيار العصبي، إذ أنه يعتبرهما ردَّ فعل طبيعي على ما شهده من جرائم وقمع وترويع خلال عامين مدعومين بعقود من القهر والإذلال وانعدام الحرية، لكن سبب خوفه كان إحساسه أن ثمة قوة ساحقة أقوى منه تهيمن عليه وتأمره، ولا يملك شيئاً حيالها...

حاول باستماتة أن يمنع نفسه عن الصراخ أو أن يتوقف عن الشتائم المروّعة المزلزلة للستائر واللوحات والجدران، لكنه لم يستطع، كل قوى روحه التي كان يشحذها لإيقاف تقصفات الصراخ وتلك الحمم من الشتائم المنفلتة من حنجرته كانت تفشل...

بل صار يسخر من نفسه ويشبّه حاله بالتنين الذي يطلق النار من فمه...

أذعن مهزوماً لما صاره: رجل الصراخ، أو الرجل الصرخة... أذعن لتلك القوة الساحقة التي تسيطر عليه وتحوّله إلى صراخ، أذعن لتلك الإهانة التي يشعرها في أعماق كيانه كإنسان، لكن هل أنت إنسان يا أمير! يأتيه هذا السؤال من الفراغ، فأمير يشعر بالفراغ طوال الوقت، يشعر بالفراغ في روحه وفي الخارج، إلى درجة أنه صار يشعر أن للفراغ ملمساً وشكلاً وكينونة. سؤال أشبه بنسمة خفيفة تداعب وجهه المتعب دوماً: هل أنت إنسان يا أمير؟

ويطلع الجواب من فراغ روحه: كل إنسان مشروع إهانة في سوريا.

عاش عمره كملايين السوريين ذليلاً مهاناً... عاش عمره وهو يتفرج على تنويعات الذل والقهر التي يحسها ويتشاركها مع ملايين من أبناء شعبه...

كان يتفرج على نفسه وعلى زملائه، كيف يتحدثون شيئاً، لكنّ نغمة صوتهم تقول النقيض... كيف كانوا يبتسمون ويضحكون فيما عيونهم تعكس قهراً وألماً متخمرين منذ عقود... كيف يتظاهرون بالسعادة ويمتدحون حياة الأمان والراحة، فيما مشاعر الذل والغضب الأشبه بجمرة مدفونة تحت رماد الخوف تعصف في أرواحهم...

كان يتفرج على مشاعر القرف والملل التي تطفح من روحه ومن أرواح زملائه وهم يجترّون أحاديث بالية من كثرة الاستخدام، أحاديث يوحّدها اليأس والتحمل والصبر على عيشٍ ذليل... حتى أنّ أحد أصدقائه قال له ذات يوم:

– حياتنا مجرد تحمّل لألم لا يُطاق.

يتظاهر أمير أنه لا يسمع الانهيار في صوته حين يتحدث، يتظاهر أنه لا يشعر بالفراغ طوال الوقت، الفراغ الأشبه بسرطان ينهش روحه، بل إنه ابتكر تعريفاً للسرطان، تعريفاً أعجبه للغاية وهنّأ نفسه عليه. أجل، ما السرطان سوى فراغ، جرثومة أكّالة تأكل الأخضر واليابس وتحيل الإنسان إلى فزّاعة... كخيال المآته، هذا ما صاره تماماً. إنه يعيش يومه شاعراً أنه يعوم في فراغ، وأن جوفه فراغ، وأن البراميل المتفجرة حين تنفجر يعقبها فراغ، وأزيز الرصاص الحي حين يتوقف لبرهة يعقبه فراغ... وأعراس الشهداء والقتلى والمقتولين تحت التعذيب، صراخهم وزغاريد استشهادهم، والآهات الملتاعة الحارقة الطالعة من قلوب

سحقها الحزن، يعقبها فراغ...

ولكثافة إحساسه بالفراغ توصّل إلى قناعة مؤكدة أن لا هواء في سوريا. أحس بنشوة حقيقية من هذا الاكتشاف، كما أحس بنشوة حين ابتكر تعريفاً للسرطان. أجل، سوف يثبت للعالم كله أن لا هواء في سوريا، وأنّ الناس يتنفسون ذعراً وذلاً وتحمّلاً يفوق قدرة إله على احتماله...

حتى الفراغ تسلل إلى أحاديث الناس وصار حاضراً بقوة، إنه يراه، أجل يراه متجسداً أشبه بفقاعات الصابون التي تنبثق فجأةً وسرعان ما تنفجر...

لماذا كل هذا الصراخ إذاً يا أمير؟! ألا تخجل أن تجلس في بيتك وتبدأ نوبة صراخ وحشي لا تقيم فيه وزناً لنفسك ولا للحياة ولا للمقدسات... أتراك تصرخ ألماً واحتجاجاً على أنّ علاقتك مع السماء تشوشت، وأنْ لم يعد ينفعك التحدث إلى ربّ العالمين، لعل صلواتك وابتهالاتك التي كانت لا تنقطع في الأشهر الأولى من الثورة لم تعد تصل إلى ربّ العالمين، لعل القذائف والصواريخ والبراميل المتفجرة قصفت صلواتك وبددت صوتك...

أم أن الوحشية الفظيعة التي تعيش في قلبها قد مسخت إنسانيتك رغماً عنك...

ليته يكتشف الكلمة الأدقّ، الكلمة الأكثر تعبيراً عمّا يشهده ويعانيه ملايين السوريين المنكوبين مثله... لأن كلمة "وحشية" تبدو شديدة العذوبة واللطف والإنسانية تجاه ما يشهده...

أيّ كلمة تصف تلك الحالة: أن تعيش مع وحش... أن تسخّر كل

طاقتك وجهودك كي تمنع نفسك من الكلام، أن تعيش في مدينة تبدو مدينة، وبيتاً يبدو بيتاً، وبشراً يبدون بشراً، وطعاماً يبدو طعاماً، وشراباً يبدو شراباً، وتلفازاً يبدو تلفازاً، وحياةً تبدو حياةً، وكل تلك الأمور مجتمعة في قبضة وحش...

وحش يسكن قصراً ويملك كلاب حراسة، شكلهم بشري يحملون بنادق، يأمر بالخطف ويطلب فدية بالملايين والمليارات حسب المخطوف...

وحش مطلق الصلاحيات يسكن قصراً يشعّ بالكهرباء حين تنقطع الكهرباء لساعات طويلة عن المدينة، وحش هرّب زوجته وأولاده إلى أوروبا السافلة الزاعقة بحقوق الشعب السوري، كي يمارس جرائمه وسرقاته بضمير ميت مرتاح...

وحش لا يملك الناس سوى التحدث عن جرائمه همساً، وكل منهم لا يعرف متى سيأتي دوره أو دور أحد أولاده في الخطف أو القتل، أو الغياب في العديد من أقبية التعذيب والاعتقال التي يملكها، وبمباركة تامة من جهاز الأمن... جهاز الأمن الذي حوّل المدينة إلى قفص والمواطن إلى حيوان... والأمان إلى أمان دجاجات في قفص...

ياه كم صرت غريباً عن نفسك يا أمير! كم صارت طباعٌ جديدة فيك تذهلك بل تروعك! ما معنى أن تسرع الخطا كل يوم لتقف عند الزاوية، وتبحلق في الدجاجات المرصوصة في قفص قذر، تحدّق فيها كما لو أنك تحدق في مرآة الحقيقة، وتقول: هذه مدينتي وهؤلاء أحبائي... ثم يختار نظرك عدة دجاجات وتقول ساخراً: أنتم اليوم للذبح أو للرمي بالرصاص، ثم تنقل نظرك إلى دجاجات أخرى وتقول لها ساخراً: إلى

الاعتقال، وتختار مجموعة أخرى وتقول: إلى النزوح...

هل تعاني من شكل مبتكر للجنون يا أمير؟ أية قوة تتسلط عليك، لا تدفعك فقط للصراخ الهستيري، بل تولّد فيك عادات غريبة تستحي أن تبوح بها لأحد... كم رغبت أن تبوح لصديقك الحميم أنك تقصد كل يوم سوق الخضار، لا لتشتري شيئاً بل لتقف أمام أقفاص الدجاج متأملاً حياتك وحياة ملايين السوريين التي تجسّدها الدجاجات في القفص.

أية لوحة قاحلة صارت حياتك يا أمير، يا من ولدت لتكون إنساناً يا أمير؟...

لن يتوقف أمير عن التحليل والتفكير بظاهرة صراخه الهستيري، عليه أن يهتدي إلى جواب شافٍ مهما أطال التفكير والتأمل...

ماذا تجد في قاع هذا الصراخ، الأشبه بصراخ حيوان متألم، يُعذّب بوحشية، الأشبه بصراخ معتقلين يعذبون بكل الوسائل الوحشية.

أخيراً أتاه الجواب الأشبه بإلهام هبط عليه من سماء قصية، بل من بقعة صغيرة من سماء لا يلوّثها دخان الحرائق، حرائق الغابات والبيوت... في قاع صراخه ثمّة صدق وطهارة... لا تزال زاوية من روحه لم تروَّع ولم تسحَق ولم تشوَّه، وتطالب بحقها في العيش الكريم، تطالب بحقها أن تجهر بالحقيقة، لأن أساس العيش الكريم أن يجهر الإنسان بالحقيقة...

ترنّح أمير من نشوة اكتشافه وأخذ يضحك ضحكةً رائعة لا تشبه الضحك الهستيري الذي يرزح تحته في إعصار نوبات صراخه، ضحكة رجل سعيد، قوي، لأن السعيد قوي دوماً، ضحكة رجل اكتشف أنه لا يزال يملك فرصة أخيرة ليقرر أن يكون الرجل الذي يتوق إليه، وألا يقف متفرجاً على حياته متأملاً الدجاجات في القفص...

هبط الدرج قافزاً ومشى بخطا سريعة متقافزة... أوقف نهر السيارات بذراعيه المرفوعتين عالياً حتى شعر أنه يلامس السماء...

شعر بنظرات الناس المارّين في الشارع، وروّاد مقاهي الرصيف، يحدقون فيه مذهولين... ماذا يريد هذا الرجل؟

صرخ أمير: يا أحبائي يا إخوتي، هيا بنا لنقتل الوحش في قصره، الوحش الذي يخطف كل يوم واحداً منا ويطلب فدية بالملايين...

امتلكوا الشجاعة وأجهروا باسم الوحش الذي يدّعي حمايتنا... إنه...

ما إن نطق أمير باسم الوحش حتى تحوّل إلى بخور، انتشرت رائحة بخور قوية ومدوخة في المدينة، رائحة بخور غطّت على رائحة الرصاص والبارود والحرائق ورائحة عفن جبال القمامة...

كان أمير سعيداً، سعيداً، وهو يطير بعد أن شعر بإنسانيته بأكمل وجوهها... بعد أن تجسد في صرخة الحق.

اسماعيل

كل صباح أختار وجهاً، أو يختارني الوجه، واليوم اسماعيل يهديني وجهه وروحه. لم أسمع بموته إلا بعد أسبوع من وفاته تحت التعذيب في فرع الأمن... اعتقل ابن الثمانية والعشرين، ورجع إلى أهله جثة تحمل الكثير من آثار التعذيب.

أعرف اسماعيل ووالده منذ سنوات، كنتُ واحدة من مئات الزبائن الذين يقصدون الدكان الصغيرة الضيقة حيث يبيع اسماعيل ووالده الحمص المسلوق والفول والفتة.

كان شاباً وسيماً، أنيقاً، يبالغ في نظافته، يلبس – كذلك والده – روباً أبيض كذلك الذي يلبسه الأطباء. كانت الدكان نظيفة، ووالد اسماعيل سريع في العمل لا يمكننا ملاحقة حركة يديه، أما اسماعيل فكان يميل إلى تبديد الوقت بالتحدث إلى الزبائن متقبلاً تعليقات والده بضرورة الإسراع بروح مرحة.

كان اسماعيل وحيداً لأهله، كان شاباً مثقفاً، شجاعاً، وناشطاً على الانترنيت، وقد اعتقله الأمن، وأعادوه إلى والده جثة، وأجبروا الأب الملتاع أن يوّقع على أوراق وأن يقول إن ابنه توفي بسبب سكتة قلبية.

حين سمعت بقتل اسماعيل شعرتُ أن الكلمات تجف في حلقي، أدركتُ أنْ ليس باستطاعتي أبداً أن أتحدث عنه. مررتُ بالدكان فلم أجد والده، وجدتُ شاباً لطيفاً قريب لاسماعيل، حكى لي القصة، بأن اسماعيل مات تحت التعذيب، وأنهم حين غسلوا جثته لاحظوا فجوة كبيرة في خاصرته ودماً متخثراً في أنفه وأذنيه وفمه، وكانت عظام ساقيه مكسرة.

رغبتُ لو أسأل: هل تتحدث عن دمية أم عن إنسان؟

لكني سألت: أين الأب؟

قال: ذهب لقضاء عمل، لا أعرف ما هو.

سألت مصعوقةً: إذاً هل ما زال قادراً على المشي؟!

ردّ الشاب وهو يهزّ رأسه متألماً: الله يعينه.

سألت: وأم اسماعيل، كيف تقبّلت مقتل ابنها؟

قال: إنهم يخدّرونها دوماً. لو ترينها، أشبه بخرقة.

تماهت ملامح وجهي مع ملامح وجه اسماعيل. سوف ينتشر موته على يومي وعلى ما تبقّى من حياتي.

مشيت كإنسان آلي متعجبةً من أن الدنيا لا تزال دنيا، مصعوقةً من أن حجارة الرصيف لاتزال كما هي، و لم تنفجر، مذهولةً من أن الشمس الدافئة تدفئ القتلة والمقتولين، ومتسائلةً: كيف يذهب الناس إلى أعمالهم، وإلى السوق ليتسوقون، وإلى المقاهي ليدخنوا الأركيلة ويثرثرون، وثمة شبانٌ يموتون تحت التعذيب كاسماعيل؟! أنا نفسي كيف لا أزال قادرة على المشي والكلام، وعلى شراء طلاء أظافر؟! هل أعيش حقاً أم أغوص في هوّة العدم؟!

اسماعيل يهديني موته، اسماعيل يهديني موته، ألا يجب أن أردّ له الهدية؟ ماذا سأهديك يا شهيد؟! لا يمكنني تخيلك إلا مبتسماً ومنتصراً. هؤلاء الوحوش الذين أشبعوك ضرباً وأنت عارٍ وأعزل وتحلم بالحرية والكرامة، لا، لا أتخيل أنهم قتلوك، بل أؤمن أن روحك النبيلة الحُرّة قرفتَ العيش الذليل، فاستأذنت جسدك لتسافر إلى عالم تفوح منه رائحة الكرامة، يا، يا اسماعيل، قصفوا عمرك يا حبيبي، وأنا عمري تراكم ذل، أنت عمرك برق يفضح الظلام ويشتُمُ القتلة إلى يوم الدين، وأنا عمري سراب... أتعرف يا مُعلمي أنني عشتُ نصف قرن أحاول أن أقول شيئاً ولا أقول، بل أتلعثم، لا ينجح لساني في تدوير كلمة، عشت نصف قرن أتلعثم وأتلعثم. أقف أمام المرآة، لا يطلّ من عيني سوى الذهول، ثمة طبقة كتيمة تعزلني عن الحياة، كما لو أن جلدي مُضاعفاً. جاء موتك كالأسيد أذاب تلك الطبقة العازلة فانتفضت خلاياي مطالبة بهواء الحرية، لا يوجد شعور مُدمّر وقاسٍ كالذلّ يا اسماعيل...

أمكنني دوماً أن أهرب من الخوف والضجر والوحدة وحتى الحب، أمكنني أن أتحايل على هذه المشاعر وأهرب منها، أما الذل فلم يعد بإمكاني تحمله، إنه أشبه برائحة جثة ينغلُ فيها الدود، ويغطيها الذباب الأزرق، لكني واثقة أن جثتك تفوح برائحة البخور.

أخبئ الخزي والقرف من صمتي تحت جلدي.

أتمثل حزن أمك وأنت وحيدها.

أتمثل حزن أبيك وأنت وحيده.

تتساقط صور أحلامهما مع دموعي، لن يتمكنا من الرقص في عرسك، ولا من حمل طفلك الأول الذي سيحمل اسم والدك...

أتخيل أرواح أولادك كفراشات صغيرة ملونة، أرواح تنتظر أن تتجسد في إنسان...

أتمثل فجيعة شابة جميلة تحبك وتحبها.

حزني عليك هو الحزي الذي أحسه لأنني عشتُ عمري خرساء...

أريد أن أدوس دبابة وأن أطلق الرصاص على بندقية.

حزني عليك يتعملق ويصير حزناً على وطن يتحول أبناؤه بسرعة البرق إلى شهداء.

لعبة الموت والقتل، هذا هو واقعنا، كل يوم نحصي عدد القتلى، وعدد المعتقلين، أي عقل يقبل أن يموت شاب تحت التعذيب لأنه يشكل خطراً على النظام؟!

يا للإعصار الذي ولّده موتك في روحي.

موتك يصقلني، أية امرأة من هلام كنتُ؟

ومن الفجوة التي أحدثها القتلة في خاصرتك أولد.

ترى بأية آلة عذبوك ونهشوا لحمك، قال لي قريبك إن الفجوة في خاصرتك تتسع لقبضة يد.

أتماهى مع أمك يا شهيد الحرية، أصير أمك يا حبيبي الشهيد، وأقبّل جبينك مسلوخ الجلد، بودي لو أغسل جسدك بدموعي، أهديتنا شهادتك يا حبيبي كي تدلنا على طريق الحياة.

أي سخف أن نقول عنك: ميت؟ أي عهرٍ أن نقول عنك: ميت؟ كيف تكون ميتاً وقد رسمت لنا طريق الحياة؟ أهديتنا موتك كي تحررنا من الموت الحقيقي المتمثل في الذل، في الصمت عن الجرائم التي نراها، في تزوير مشاعرنا وحرف أفكارنا بأن عيشنا آمن ومستقر، أما نحن

فلسنا سوى حيوانات في قفص تنتظر رحمة مالكها كي يرمي لها بفتاة مائدته لتأكل...

ما يبدو حياةً ليس حياةً يا اسماعيل.

وما يبدو موتاً ليس موتاً يا شهيد.

أنت الحي ونحن الأموات.

الموت هو اليأس والحياة هي الحرية.

نحن أموات وأنت حي.

أنا الميتة الأنيقة، الصامتة، الآمنة وسط حجارة وزجاج، أقوم من بين الأموات، أنفلت امرأة الحرية والكرامة من تجويف خاصرتك الذي أحدثه القتلة في جسدك البض.

لحمك المتطاير في حفلات التعذيب، ودمك الذي التصق بجلد قتلتك ووشَمهم إلى الأبد بجرائمهم الوحشية، دمك الذكي أعاد رسم وطن حر.

يتقمصني اسماعيل، أحس بأنفاسه تلفح وجهي، أحس بدمه الساخن يطرد عفن أعماقي، كيف سأردّ لك الهدية يا حبيبي الشهيد... سأتحدث عنك في كل مكان، وسأصلي كي أرقى إلى مستوى الكتابة عنك... لكن السفلة متنوعون، أحدهم قال لي حين سمع نبأ مقتلك على أيدي عناصر من الأمن: يستأهل أن يموت فهو من تنظيم القاعدة...

روّعني هذا الكلام، أإلى هذا الحد تصحّرت النفس البشرية، فضمرت المشاعر الإنسانية بين البشر؟! كيف يمكن لإنسان أن يختار الولاء للقاتل، والتنكر للقتيل؟... هل يمكن تبرير هذا السلوك الخائن المقرف واللا إنساني؟

هل الخوف يُسمّم النفس ويمعن في إذلالها وتشويهها؟...

أنت طريقي يا اسماعيل، موتك هو صليبي الذي سأحمله بكل رضى وفخر ما تبقّى لي من حياة.

موتك يفجّر الكرامة والحرية في حروفي وفي دمي.

موتك أعتقني من الخوف.

ذهبتُ لأعزّي باسماعيل. كنتُ أضع بجانبي علبة حلويات وأحد كتبي، بدت لي تصرفاتي خرقاء، ولكن بدا لي أن رد الفعل الطبيعي في هذه الظروف هو أن أكون معتوهة وخرقاء.

لم أحتج أن أبحث عن بيت القتيل الذي أزوره لأول مرة، لأن أوراق النعوة دلتني إلى البناية وإلى المدخل. فتحت الباب أخته هبة، شابة جميلة أم لطفلين، طفلة في الثالثة من عمرها تلعب بدمية صغيرة، وطفل عمره سنة ونصف. وجه هبة صبوح، مبتسم، قامتها هيفاء، ثم جاءت أمها، الأم المفجوعة، بدت امرأة، صُعقت أنها امرأة و لم تتحول إلى حطام، لم تتشظى، لم يطل الجنون والهستيريا من عينيها. تبادلنا القبل، نحن الذين نلتقي للمرة الأولى يجمعنا دم الشهيد ذي الثمانية وعشرين ربيعاً. كانت صور اسماعيل خلفنا، يا لبهاء وجهه، وجه يطفح سعادةً وتفاؤلاً وشهية للحياة، ابتسامة رائعة منتصرة سعيدة، إطار اللوحات مكتوب عليه المصور جمال، إنها الصورة ذاتها التي رأيتها له على الفيس بوك حين بحثت عنه، شاب جميل ساحر، بدا ساخراً كأنه حتى بعد موته يسخر من القتلة...

كنتُ متلهفة لأسمع القصة، وكانتا – أمه وأخته الوحيدة – تعرفان أنني في بيتهما لأسمع القصة، قصة موت اسماعيل تحت التعذيب من

قبل الأجهزة الأمنية. أذهلني هدوء الأم، كما لو أنها تحكي عن غائب وليس عن ميت. كيف أمكنها أن تتحمل موت ابنها تحت التعذيب؟ كيف استطاعت أن تطرد صوره وهو يتلقى الضرب والإهانات حتى يموت؟!... هل من معجزة أكبر من قلب أم؟!

كنتُ أجلس مقابلهما، أنقّل نظري بين وجهيهما الصبوحين الصبورين: هدوءهما حقيقي، ليس مصطنعاً ولا زائفاً. رحبتا بزيارتي بصدق وفرح. كنتُ أشعر طول الوقت أنني أتيتُ إليهما ليس لأعزيهما بل كتائهة جاءت تتلمس طريق النجاة. كانت نظرتي تنقسم إلى مستويين: عين أرى بها الأم والابنة وعين على صور اسماعيل المبتسم الساخر والمنتصر، والميت...

سخرتُ من نفسي، ما أوهن ذاكرتي، كم نسيتُ من الأشياء، والأهم أنني نسيت أنني سأموت؟ كما لو أنني لا أصدق أنني سأموت، ولا أفعل شيئاً في حياتي إلا تأمل وجودي البيولوجي التافه والمقزز، آكل وأنام وأطرح الفضلات كحيوان، ولا أمتلك نبل وجرأة اسماعيل.

اسماعيل عاش التجربة الحقيقية للحرية، وهي الموت، أنا ما زلت مذعورة، خائفة، لم أعش الحرية، و لم أذق طعمها، مازلت أعيش حياة الذل، في سوريا ثمن الحرية الموت، ومن عليه أن يتذوق الحرية عليه أن يكون جاهزاً لتجرع كأس الموت من يد القتلة...

كان كل شيء حولي أشبه بمعجزة، الأم والابنة والطفلين وقريبتين تبرعتا بسرد قصة اعتقال اسماعيل. قالت قريبته إنه كان يواظب على صلاة التراويح، وإنه كان ناقماً على الوضع. لم تعلّق و لم تصف الوضع. كما قالت قريبته إنه كان ناشطاً على الانترنيت، و لم تعلّق أمه بكلمة، أما

أخته فقالت: يمكنك معرفة كل شيء من الانترنيت...

سألتُ: هل كان يتظاهر؟

ردّت الأم: لا أعرف، لكنه لم يكن راضياً، كان في الثمانية والعشرين، ولم يجد فرصة عمل ولم يشأ أن يعتمد على والده... ثم اعتقلوه وهو خارج من الجامع، وبقينا أسبوعين لا نعرف أين هو.

سألت: هل اعتقل مع آخرين؟

ردت أخته: بالطبع.

كنتُ أعيش اللحظة في العمق، عمق سحيق يمتد على عمري كله، عمري التافه الجبان الذي عشته وأنا أبتسم في وجوه القتلة كي لا يؤذوني ويؤذوا ابنتي، وتمثل في خيالي وجه صديقة لي، هي في الواقع عدوة، إنسانة أحتقرها وأكرهها، لكني لم أقطع صلتي بها، إنسانة سافلة زوجها ضابط أمن، لعله هو من أمر بقتل اسماعيل.

سألت: وماذا حدث بعد أسبوعين؟

قالت الأم بهدوء أذهلني دون أن يختنق صوتها أو تمتلئ عينيها بالدموع:

– اتصل أحدهم بأبي اسماعيل وقال له ابنك حالته صعبة وهو في مستشفى بدمشق، ويجب أن تحضر لاستلامه وأحضر معك بدلاً (أي ثياب داخلية).

فرد أبو اسماعيل: كيف سأستلمه وأخرجه من المشفى إن كانت حالته خطرة؟

وبعد عدة أسئلة من أبو اسماعيل، قال له الوسيط: البقية في حياتك.

لم يذهب أبو اسماعيل إلى دمشق لاستلام جثة ابنه، بل استلمها خال

اسماعيل وعاد إلى اللاذقية جثة، وأجبر الأب على أن يوّقع أوراقاً أنّ ابنه توفي إثر نوبة قلبية، لكنه لم يوقّع... والبعض قال وقّع.

لكن اسماعيل لا يبالي، سواء وقّع والده أم لم يوقّع، فقد ذاق الحرية وحوّل جروح جسده إلى ألسنة تسخر من الجلادين. أراد اسماعيل أن يوصل إلينا رسالة بليغة:

لا قيمة لحياة بدون كرامة وحرية، أهدانا جسده وقصته لتكون لنا عبرة...

الطفلة التي تلهو بدمية صغيرة، بدت عارفة عمّا نتحدث، ابنة السنوات الثلاث تعرف أن خالها الذي كان يحبها كثيراً ويدللها قد قُتل... سألتها: هل هذه الدمية صبي أم بنت؟...

رفعت إليّ عينين ذكيتين وقالت: هذه دمية.

كانت القهوة كثيفة جداً وشديدة المرارة، وكنتُ أنظر طول الوقت إلى وجه اسماعيل، وشعره الفاحم الكثيف الناعم، وعينيه السوداوين الساحرتين ووجهه الصبوح وابتسامته الطالعة من قلبه المتفتح لحب الدنيا... كان يعطيني شيئاً من روحه، وكنتُ دقيقة بعد دقيقة أحس بعظمته وأدرك ضآلتي...

في حضرة اسماعيل عرفتُ أني لا أريد أن أكون ما أنا عليه، وأن هذه المرأة التي هي أنا ليست أنا، أدركتُ أنني لو أردتُ أن أتحقق وأصير ما خلقتُ لأكونه عليّ أن أمتلك شجاعة اسماعيل، شجاعة الشهيد... كنتُ أحتاج أن ينقذني من هذا الذل ومن هذا الخوف الذي ما عدت أطيقه أو أتحمله...

لم يعد ألمي بلا هوية، بل صار ألماً أخلاقياً، و لم يعد من مجال للموارية

وتزوير الحقائق، إما أن أعيش ذليلة أو أنفجر بالحقيقة واضعة قلبي على كفي.

لم تكن صور اسماعيل مجرد صورة، بل كانت تحمل روحه. أمكنني أن أشعر بروحه تقويني وتهمس لي: الخوف وهم، لا تخافي، ماذا فعلوا، قتلوا جسدي، لكنني باقٍ، أنا المنارة التي ستفضحهم دوماً، كلنا سنموت والمهم هو ما عنوان موتنا، تكفيهم سفالتهم ووحشيتهم، يكفي أنهم قتلة ومجرمين... لقد ثقبوا جسدي بسكاكينهم وأنا ثقبت وجوههم البشعة بعيني بنظرة الحق، النظرة تثقب أكثر من السكين صدقيني.

كنتُ أُصدّق اسماعيل، وشعرتُ أنني محمومة وأنني أتحوّل شيئاً فشيئاً كأفعى تنزع جلد الخوف والذل... وحين خرجتُ إلى الطريق كان كل شيء متبدلاً، كل شيء يتحول ويتبدل، ثمة رائحة غريبة في الجو لم أكن أميزها من قبل، رائحة الحرية التي بدأ الجميع يشمها، رائحة تفوق رائحة الموت...

لكن ظلّ اسماعيل يخطفني إلى عالم شديد الروعة والنقاء، عالم الحرية والكرامة، ويغمزني ألا أخاف، لأن من يريد أن يسبح في بحر الحرية لا يجب أن يخشى أن يقذف نفسه في الماء... لكن، وكما لو أنني أتملص أو أراوح مكاني، كان كل كياني أسير السؤال الأبدي: هل ثمن الحرية الموت؟ أم أن هناك ثمناً مُلطفاً قليلاً؟!

بقعة ضوء

أيّ هوسٍ يسيطر عليها فيدفعها للجهر بحقيقة لم يعد من جدوى من الإجهارٍ بها؟! أيّ هوىً يتسلط على ذاكرتها كي تنكأ تلك الذكرى المدفونة في قاع ذاكرتها منذ أكثر من ثلاثين عاماً؟! ذكرى عمرها دقيقة واحدة، ذكرى أشبه بومضة، ذكرى لشدّ قصرها تشكّ أحياناً أنّ الحادثة قد حصلت.

ثمّ ما معنى أن تظل تلك الذكرى مُغيبة طوال تلك السنوات، ثم فجأة تستيقظ بزخم غريب، وتتعملق شيئاً فشيئاً حتى يصير كل كيانها وذهنها وذاكرتها وكل أحاسيسها مستلبة لتلك اللقطة؟...

لقطة أشبه بالبرق تلتمع وسط ظلام كثيف يبتلع روحها؛ لقطة أشبه بنور شمعة يعرّي المكان لثانية ثم ينطفىء؛ لقطة لشابة – كانتها ذات يوم – في السابعة عشرة من عمرها، مبتسمةً دوماً، نقيةً كدمعة، تشعر أن قلبها ملون بألوان قوس قزح من الفرح، غبطة الشباب، وغواية اكتشاف العالم، والأحلام التي لا يتسع لها عمر واحد. كانت تلبس فستاناً باللونين الأخضر والكحلي، فستان جميل يكشف عن عنقها وأعلى صدرها. كانت سعيدة بجمالها الذي تراه في عيون الآخرين؛ سعيدة

بذاتها وتفتّحها على حياة تراها وردية؛ سعيدة أنها تُحِب وتُحَب.

دخلت المطبخ لتشرب ماءً قبل أن تذهب إلى حفلة عيد ميلاد إحدى صديقاتها... ثم... لم تعرف بدقة كيف وجدته أمامها، عمها الذي طالما أحبها ودللها، عمها الذي كان والدها الثاني، اقترب منها وأمطر عنقها بقبلات نهمة وهو يهمس بصوتٍ كالفحيح: ما أجملك!...

خرج من المطبخ وعاد للانضمام إلى أهلها في الصالون، حملت الهدية وذهبت إلى حفلة عيد ميلاد صديقتها وثمة صدمة تشوشها وتصيبها بحالة تشبه دوار السفر... ثمة عَكَرٌ شديد حصل في أعماقها، بقايا لعابه اللزج كريه الرائحة لا يزال ملتصقاً ببشرتها، إنها لا تجرؤ حتى على لمس عنقها، كي لا تتأكد أنه فعلاً قد تحرّش بها. إنها لا تصدّق أن العم يمكن أن يتحرش بابنة أخيه! لا تصدق أنه هو - والدها الثاني - قد انتهك طهارة شبابها المتفتح على الحياة كالبراعم المثقلة بالأمل. لم تستطع قط أن تندمج في جوّ الاحتفال. رقصت وغنّت مع صديقاتها وضحكت، وسمعت ضحكتها المجلجلة لكنها كانت في مكانٍ آخر؛ كانت في منطقة معتمة محشورة في زاوية، والعم يفترس عنقها...

في تلك الليلة قررت أن تدفن تلك الحادثة في مزبلة ذاكرتها ومزبلة التاريخ، وبالغت في التقليل ممَّ حدث، وتفنّنت في سخريتها من نفسها، وأجبرت نفسها على الاعتقاد أن ما حصل ليس تحرّشاً جنسياً أبداً، بل تعبير عن محبة كبيرة وطاهرة من عم إلى ابنة أخيه...

في تلك الليلة حلمت حلماً غريباً، حلمٌ ظلت تعاني من الذعر الكامن فيه لأيام، حلمٌ قصيرٌ جداً، حلمٌ كومضة أيضاً، حلمت أنها تقف وحيدة خائفة في باحة المدرسة الكئيبة الرمادية، وأنها بلباس الفتوة، راكعة،

ومُعنّفة من قبل مدربة الفتوة التي أمرتها أن تزحف قاطعةً الباحة ثلاث مرات، وهي تقول لها: يا حيوانة، عمك لم يتحرّش بك و لم يمطر عنقك بقبلات شهوة بل بقبلات طاهرة، مُحبة، كما يقبّل الأب ابنته.

انتفضت متقصفةً من ذعرٍ يسربلها ككفن. يا لغرابة هذا الحلم! ما العلاقة بين مدربة الفتوة التي كانت وظيفتها الحقيقية إذلال الطالبات وتحطيم معنوياتهن وكرامتهن وبين ما حصل في المطبخ بينها وبين عمها، ما الربط بين الحادثتين؟! لم تكن قادرة، وهي في عمر البراعم، أن تحلل وتغوص في أعماق النفس البشرية، و لم تعرف كيف تفسر هذا الحلم الغريب، لكن ما أدركته بحدسها أن ثمة رابط مؤكد بين مدربة الفتوة وعمها، هو إحساس الذل والمهانة والخوف الذي تحسه كلما تذكرتهما...

وكما دفنت ذكرى القبلات اللزجة لعمها على عنقها في مزبلة الذاكرة، دفنت معها هذا الحلم أيضاً، وأعطت ذاتها للحياة، ارتمت فيها كما لو أنها ترمي نفسها في بحر صاخب الأمواج، و لم تعد تذكر تلك الحادثة إطلاقاً، نستها كلياً كما لو أنها لم تحصل في الحقيقة... ثم فجأةً، دون إنذار ودون أي سبب أو حادثة لإحياء تلك الذكرى، وجدت نفسها ترزح تحت ثقل تلك اللقطة، وعادت تلك الحادثة تومض ببريق حاد: شابة في السابعة عشرة ينقضّ عليها عمها، ملتهماً عنقها البضّ بقبلات سريعة نهمة، شهوانية، تاركاً آثاراً من لعابه كريه الرائحة على عنقها... استفاقت تلك الذكرى كما يستفيق ميت، ويدحرج حجر القبر ويعيد إكساء عظامه بالعضلات والجلد، استفاقت هذه الذكرى كالقيامة من بين الأموات...

في البداية اعتقدت أنّ سبب انفلات تلك الذكرى التي تعود لأكثر من ثلاثين عام هو بسبب تعبها وخوفها وألمها مما يحصل في وطن تعشقه سوريا، كيانها كله يدور في دوامة الألم الطاحن، ما تشهده من قتل ودمار وترويع يجعل ذهنها مرضوضاً ومشوشاً، يجعله متقصفاً من الذعر. أجل، ثمة زلزال من الرعب يزلزل روحها وعقلها وذاكرتها فيدفع ذكريات عميقة كي تنفلت من القبر إلى سطح الوعي...

لكنّ تلك اللقطة أخذت تهيمن على كيانها كله، سيطرت عليها بطريقة غريبة لدرجة أنها شعرت أنّ عليها أن تعيد فهم كل حياتها على ضوء تلك اللقطة، شعرت أنها لم تمسح بعد آثار اللعاب اللزج لعمها عن عنقها... لم تمسح بعد الذلّ والمهانة والخوف، لم تمسح القذارة عن جلدها ونسيج روحها...

لولا ثورات الربيع العربي لظلت تلك الذكرى مدفونة في قاع روحها. إنها تدرك الآن، وبعد أكثر من ثلاثين عاماً على تلك الحادثة، حادثة التحرش الجنسي التي تعرضت له من قبل عمها، تدرك أن الثورة الحقيقية تحدث في الروح، وأن لا شيء يموت، وأنها تريد أن تجهر بالحقيقة ولو تأخرت ثلاثة عقود عن الإجهار بها...

الثورة الحقيقة ليست أن نتبجح بأفكار ونؤمن بها، بل أن نصرخ بها بصوتٍ عالٍ لأنّ الثورة هي صوت الحق والحقيقة...

إنها تدرك الآن، وهي في عقدها الخامس، أنها عاشت عمرها منفصمةً إلى امرأتين، امرأة ذليلة وامرأة شجاعة ومصرّة على كرامتها. عاشت عمرها وهي أشبه بساحة صراع بين المرأتين، كلّ منهما تريد سحق الأخرى، المرأة الذليلة تريد سحق المرأة الشجاعة بحجّة أن ثمن

العيش في بلد الاستبداد هو أن يضحي الإنسان بمجرد كرامته... بمجرد إحساس ما هو إلا عبء لا فائدة منه: الكرامة، هو أن تدفن مجرد بضعة قبلات خاطفة في أعماق الذاكرة، وتزوّر ذاكرتها، بأنها قبلات طاهرة من عم إلى ابنة أخيه، هو مجرد تعطيل الإحساس بالذل والإهانة من صراخ مدربة الفتوة: يا حيوانة، يا حقيرة، هيا ازحفي، كيف تنسين ربطة العنق في تحية العلم، حيث تجأر الفتيات مردّدات: وحدة حرية اشتراكية، فتصرخ المدربة بصوتٍ أقوى: يا حيوانات! فتجأر الطالبات: أهدافنا، وحدة حرية اشتراكية...

ثمن بسيط مقابل عيش مرفّه! ثمن بسيط هو الكرامة...

لكنّ المرأة الأخرى تصرّ على الكرامة، تصرّ على أنّ الحياة الحقة هي الحياة المعمّدة بالكرامة، وأن من يتنازل عن كرامته يعيش مغترباً عن ذاته، وأنّ وجوده كله وكيانه يكون مغشوشاً ومعطوباً. المرأة الأخرى لا ترضى في الذلّ، وتزدري المرأة الأخرى التي ترضى بعيشٍ ذليل ومُترف...

إنها لم تعد تحقد على العم الذي تجاوز الثمانين والذي صار على حافة القبر، وليست غايتها من إحياء تلك الذكرى معاقبته أو إثارة فضيحة، بل إنها في الواقع تشعر بالشفقة عليه، كما لو أنّ هذا العجوز المهترىء لم يكن يوماً ذلك الرجل الشبق الذي لم يستطع أن يلجم شهوته المحرَّمة تجاه ابنة أخيه...

إنها تريد الجهر بتلك الحقيقة لغايةٍ وحيدة هي تأكيدها على ثورة أعماقها، تلك الثورة التي ربما لم تكن تحدث لولا ثورات الربيع العربي... إنها تدرك الآن أنّ الحقيقة هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن تجاهله أبداً،

وأنها كانت مخطئة حين اعتقدت أنها لا تملك جرأة المواجهة، جرأة مواجهة ترسانة من الخوف والقمع والتحقير، ومن رفض الزحف... كم تتمنى لو تصفع مدربة الفتوة صفعات مدوية على وجهها، لو تنتصب وتثقب عينيها بنظرتها المتحدّية وهي تصرخ: أنا لستُ حيوانة ولا حقيرة، أنا إنسانة وعليك احترامي...

أدركت الآن أنّ كل حياتها كانت أشبه بزحف، كل ما حصلت عليه تطلّب منها الزحف، تطلّب أن تتحمل الذل والتحقير والإهانة، كثمن واجب دفعه للحصول على ما يتطلبه العيش في هذا البلد... لكنها كانت تتحمل من أجل أحبّائها، من أجل أولادها ومن أجل لقمة العيش...

لطالما آمنت أو أجبرت نفسها على الإيمان بأنها لا تملك شجاعة مواجهة حقيقة عيشها، لطالما أنكرت أنه عيش ذليل واستبدلت كلمة ذل بكلمة أمان، يا للغثيان الذي تحرّضه في نفسها هذه الكلمة الآن، أيّ أمانٍ مقزّز هذا!...

يا لسعادتها، سعادة من يكتشف كنوز خفية في روحه، سعادة من يكتشف أنه يملك قدرات هائلة على المواجهة...

تريد الآن أن تجهر بتلك الحقيقة، بتلك اللقطة التي لا تتجاوز دقيقة، ليس لغاية إذلال عجوز بل لأن الحقيقة هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن تجاهله، ولأنّ كل عمرنا، مهما امتد وكان برّاقاً ومكللاً بنجاحات، كله لا يساوي شيئاً تجاه لحظة الجهر بالحقيقة... إنها الآن المرأة الشجاعة التي هزمت المرأة التي تبرر الزحف لمدربة الفتوة، لقد انتصرت المرأة الشجاعة في أعماقها و لم تعد تشعر بتلك الكآبة اللطيفة التي تسربلها حين تختلي بنفسها، لم تعد تشعر بذلك الخوف المزمن من مواجهة نفسها لأنها

تخشى أن تجبرها تلك المواجهة على رؤية وجهها الحقيقي بمرآة الحقيقة، لم تعد تشعر بتلك المشاعر الغريبة المخيفة حين كانت تستيقظ من عز نومها مذعورةً من إحساس أن وجودها يتسرب بين أصابعها...

لم تعد تشعر أنها تمثل حياتها بل تحياها في العمق...

لم تعد تشعر أن وجدانها باهت ومنافق، بل هو وجدان حي، كوجدان هؤلاء الثوار الذين يَهدر صوتهم في الشوارع مطالبين بالحرية والكرامة...

الأهم أنها لم تعد تبالي بآرائهم واستهجانهم لإجهارها بتلك الحقيقة، بوقاحتها وجنونها وهي تحكي للأسرة المصونة أنّ العم تحرّش بها منذ ثلاثة عقود، وأنه التهم عنق شابة – كانتها ذات يوم – بقبلات شهوة زنخة...

كم تشفق عليهم! كيف بلبلهم اعترافها واستهجنوه، و لم يرد أحد منهم تصديقه لأنهم قانعون بعيش الذل، لأنهم ارتضوا منذ دهر أن يدفعوا كرامتهم ثمناً للعيش في بلد الذل والاستبداد...

لأن الشجاعة والجنون وجهان لعملة واحدة في نظرهم...

إنها تشفق عليهم لكنها سعيدة، سعيدة في أعماقها، سعيدة بأنها صارت الإنسانة التي لم تجرؤ يوماً أن تكونها، و لم تعتقد يوماً أنها ستكونها...

لقد انتصرت، انتصرت على ذاتها واستطاعت اختراق حجُب الخوف والذل، لم تعد تلك الإنسانة المغشوشة التي تتشدق بشعارات وكلام طنان...

إنها الآن الحقيقة النقية، الحقيقة المجسّدة بصورة امرأة حرة...

أحيت إحساسها بكرامتها الذي ظلّ محنّطاً لعقود... سلطت بقعة ضوء على حادثة أذلّتها وجعلتها عاجزة عن التواصل مع ذاتها الحقيقية...

لا يمكنها وصف إحساسها بالكرامة والحرية مهما اجتهدت وبحثت عن مفردات في اللغة لوصف مشاعرها، فإنها عاجزة، تشعر بيدها تمسك القلم مشلولة، كيف يمكن رسم الهواء والريح والرائحة...

إنها تشعر أنها محمولة على أجنحة من أثير، أنها حرة ونقية وقوية وفاتنة...

كالهواء والريح والرائحة...

لقد انتصرت امرأة الكرامة في روحها... انتصرت ثورة أعماقها واستطاعت الجهر بحقيقة العم، كما ستجهر الشعوب العربية بحقيقة الحكام المستبدين السفاحين.

ترويض الألم

أنتظر الفجر بشغف. بالشغف ذاته أنتظر الحب.

أنتظر الفجر يبدد ظلمات روحي، كما لو أن شعاعه المزرق الملتمع سيفتح طاقة أمل في روحي المظلمة...

أنتظر الحب، أخلقه، أحوكه بخيوط حرير الروح، مع كل شهيق وزفير أنسج خيطاً ناعماً ملوناً، لأنسج من هذه الخيوط وجه حبيب، اخترته، وأحببته وأنا مفتوحة العينين... أحببته لأني قررتُ أن أحبه، لأنه يستحق من بين كل هؤلاء الرجال، أو أنصاف الرجال، أن أحبه...

كم أنا مخرّبة! رغماً عني، هل توجد خلية تقاوم السرطان!

كم يسخر مني بعضٌ من معارفي، يقولون لي ساخرين: "لا يعجبك أمان الدجاجات في القفص أليس كذلك؟ ما يحدث من قتل وتقطيع أحياء وجثث أفضل، أليس كذلك؟".

أهمّ بالردّ عليهم لكني أسكت، أعرف أنهم يشيرون إلى مقال كتبته منذ أشهر قبل ثورات الربيع العربي، بعنوان "أمان الدجاجات في القفص". وكنتُ أقصد أنّ الأمان الذي نعيشه زائف، وهو أمان بلا

كرامة ولا حرية كما لو أننا حيوانات في قفص.

يطلع الفجر أخيراً، يطلع من قلبي ومن النافذة. تذهلني دوماً تلك اللحظة التي لم أنجح مرة واحدة في التقاطها، حين يتحول الظلام البنفسجي إلى الأزرق الفضي الناعس. كم مرة جلستُ مقابل النافذة أحدّق بانتباه لالتقاط لحظة التحول هذه، لكن يكفي أن أرفّ جفني حتى تطير اللحظة وتفلت مني، في رفّة الجفن هذه يزغ الفجر، لكن لم يعد شعاع الفجر يبدد ظلمات روحي، حتى الشعاع ذاته مخرّب، تحوّل من حبل من النور إلى نفق يخفي داخله الموت.

في داخلي امرأة تموت كلّ يوم، كل يوم أتماهى مع وجهٍ من وجوه هؤلاء الذين يسقطون بالرصاص، وحولهم أعضاؤهم المتناثرة ودماؤهم، يُلفّون بأكفان أولا يُلفّون، ويُدفنون في مقابر جماعية، أو يستعرضون بهم جنازات مهيبة!!

صار الموت طعم حياتي، فمع فنجان القهوة الصباحي أستقبل أولى علامات الحياة التي تعني أنّ يومي قد بدأ، ومع أول لقمة أبتلعها أكون أستمع إلى المذيعة الأنيقة وهي تبدأ نشرة الأخبار بـ: قُتل كذا كذا... صرتُ أنتظر النشرة الجوية مع نشرة القتل اليومي.

صرتُ امرأةً مثقوبة. أشعر طول الوقت بفقدان كياني، كما لو أنني أنزف حيويتي وروحي من ثقب أحدثه الرصاص في روحي... نزيف الروح غير مرئي.

لكلّ شيء طعم الفشل. أنا أفشل في أن أحيا. يسكنني الموت رغماً عني... أسخر من نفسي حين أوهم نفسي أنني إيجابية، وأنني أدسّ السماعات السوداء الصغيرة في أذني وأنطلق للمشي، أترك قدماي

تفكران عني، وتقوداننني في أزقة وشوارع اللاذقية، وحين أصل إلى البحر، كمحطة أخيرة، أستسلم للبرودة المنعشة وأتخيل أنّ رذاذه يغمرني، وبلمح البصر يُفسد خيالي الصورة، إذ يتحول الرذاذ إلى رشقٍ من الرصاص يثقب جسدي، فللتو أدخل شاشة التلفاز وأستلقي بجانب القتلى...

قتلى وقتل، قتل وقتلى، هذه هي حياتنا منذ عشرة أشهر في سوريا، بلد الأمن والأمان...

أخجل من نفسي حين أتأنّق وأجلس في مقهى رصيف، أشرب عصير البرتقال أو الشاي الأخضر، وأتأمل المارة، متعتي الحقيقية، أخجل من نفسي بل أسخر منها. يا إلهي لا أعرف إنساناً يعادي نفسه مثلي؟ كما لو أنني أسائل نفسي: أتظنين أنك تعيشين حقاً؟ أهذه حياة؟ على بعد أمتار منك الجنود، والحواجز من أكياس الرمل والبواريد، ويمكن ببساطة أن يخترق صدغك رصاصة، وربما قلبك أو بطنك...

لم أنتبه إلى عمق التحولات في روحي، وإلى مدى التشوّه أو الموت الذي أصابها، إلا حين تنبهني مواقف معينة إلى مدى التغيير الذي حلّ بي، فحين أخبرتني صديقة لي أنها مصابة بسرطان الثدي وستبدأ رحلة العلاج الشاقة، وجدتني أبتسم بسخرية ابتسامة معناها: أيّ سخفٍ هو علاج السرطان في هذه الظروف، فحين تتحول حياتنا إلى حقل موت مزروع بألغام يمكن أن تنسف الحياة بلحظة، فأيّ سخفٍ علاج الأمراض هذا؟!

أسخر من نفسي حين أهتم أن يكون طعامي صحياً، قليل الحريرات!

أغص وأنا أبلع اللقمة ساخرةً من نفسي: ما معنى طعام صحي وسط جنون القتل الرخيص المجاني وتشويه الجسد الإنساني وتقطيعه وعرضه على الشاشات؟!

أجبته – لا شيء – لا يهمني إن أحبني أم لا، مع أنني أفضّل أن يحبني، أحببته لأن الحب وحده يملك القدرة أو الموهبة على ترويض الألم.

لأن الحب وحده قادر على أن يخلق حياة موازية للموت.

كان يجب أن أتحايل على وحشية هذا القتل اليومي المتزايد وحشية وعهراً وجنوناً، كان يجب أن أحافظ على عقلي من الجنون أو الانهيار العصبي، وأن أخلق زمناً آخر وهامشاً من الحياة أشبه بهلال نحيل فضي من سماء ماتت نجومها.

حبي له جعلني امرأة تملك زمنين: زمن ممتلىء بالقتلى والموت، وزمن آخر ممتلىء بالهوى والشغف، هوى لرجل، وهوى لاستحالة، وهوى لحياة...

أيّ ميزان سيوازن بين الكفتين: كفة الحياة وكفة الموت؟! الجواب الوحيد والصحيح هو الحب...

أدشّن معجزتي أو براءة اختراعي، حين أتمكن (أتمكّن من ماذا؟)، أنا التي أقصف بالرصاص دون أن أقصف، ويُقطع جسدي دون أن يُقطع، وأُختطف دون أن أُختطف، وأُعذَّب بالكهرباء وأُغتصب دون أن أُغتصب، وأُركَّع دون أن أركع، وأُهجّر وأنا جالسة في بيت دافىء وغير آمن، وأتفجع بكاءً على أخ أو ابن أو زوج قتلوا تحت التعذيب أو برصاص الأمن أو برصاص العصابات والمندسّين...

أدشّن معجزتي حين أحوّل أطنانَ من الكآبة والخوف والقلق والعدمية والإحباط إلى حب...

أجل حبّ، لست واهمة ولا مجنونة، ولا أخلق وهماً يعينني على تحمّل وحشية الواقع. ثمة لقطات لا تمحى من ذاكرتي أبداً، بل أقول دوماً سأذكرها في آخر لحظة من حياتي، صورة طفلة لا تتجاوز الثالثة من عمرها تبحث، حافية القدمين ومشعثة الشعر، عن دميتها وسط أنقاض، بعد أن قصفت إسرائيل قريتها وأحالت بيتها ركاماً، طفلة في الثالثة من عمرها لم تستطع كل آلات الدمار الوحشية سحق شعلة الحب والأمل في قلبها.... طفلة لم تتقصّد الكاميرا تصويرها، لأنها كانت تصور كل الخراب وكل الوحشية، وكل القتلى، وكل الأشياء...

طفلة التقطتها الكاميرا بالصدفة، وسحبتني من قلبي، وتحوّلتُ إلى صلاة أو ابتهال، وأنا أرجو الكاميرا أن تظل الطفلة في مجالها، فكانت تغيب وتعود، وأراها تبحث عن شيء وسط الركام، وشعرها الناعم مثقل بالغبار الكثيف، وقدماها الحافيتان مجرّحتين وثوبها ممزق، لكنها تمكّنت من التقاط دميتها الصغيرة من القماش، سحبتها من بين الأنقاض، ونفضت عنها التراب، وضمتها إلى صدرها...

طفلة جعلتني أركع أمام الشاشة، وأمدّ يديّ لألمسها، لأتبارك بها. طفلة لا تعرف القراءة ولا الكتابة لكنها تعرف، بحسّها الطفولي غير المخرب الذي عجزت عن تخريبه كل أدوات الشر والدمار، حب الحياة...

أحببتكَ مفتوحة العينين، مزوّدة بسلاح أقوى من كل الرشاشات

والدبابات والرصاص، بالقلم... قلم يخلق الحياة والحب.
حبي لك بدأ بترويض يومي للألم، وأرجو أن ينتهي بهزيمته.

تعويذة

كنتُ أملك كل الوقت لأفرد حزني وقلقي الذي يقارب الذعر عليه: حبيب قلب قلبي. تدغدغني ضحكته الساخرة من هذا التعبير الذي ابتدعته لا أعرف لماذا: حبيب قلب قلبي...

يضحك ساخراً ويقول: ماما، يمكنك أن تكتفي بالقول إني حبيب قلبك...

أوافق وأنا أطرق خجلةً من التعابير الخرقاء الكثيرة التي أقولها مدفوعةً بنوبات من الحب المجنون له؛ حب عاصف من أم لابنها؛ حبٌ يشعرني أنني أتعثر في خطواتي مرتبكةً بعنفوان تلك العاطفة التي تأخذ بتلابيب روحي...

ترك رذاذاً من عطره في فضاء عزلتي وغادر إلى عمله. تأملته خلسةً من شق النافذة: كيف ينفض الغبار عن الزجاج الأمامي لسيارته الصغيرة، وكيف يُحكم وضع المرايا، وما أن فتح الباب وجلس خلف المقود حتى هوى قلبي، وخيالي يصفعني بصورة السيارة تتفجّر وجسده يحترق ويتناثر أشلاء، كأجساد هؤلاء الشبان الذين يطلون عليّ من الشاشة. وتحولت بومضة عين إلى أمٍّ مفجوعة بابنها، تضم ما تبقّى من جسده

وثيابه المشبعة بدمه، وتندبه... انهمرت دموعي فيما بدأت سيارته تتحرك مبتعدة.

بدأ القلق العنيف يتوهج حرارةً في وجنتيّ. أعين نفسي بتمسيد وجهي بأصابعي وأتسمّر أمام الشاشة مروّعةً من القتل الوحشي، وتقطيع الجثث، ومناظر الأمهات المفجوعات بأولادهن، وبالجنازات الجماعية للشهداء...

أطفئ الشاشة فيما صور القتلى تلاحقني، وأذناي تطنّان بعويلٍ موجع لأمهات ثكالى. أحضر القهوة لحاجتي لأيّ شيء يدعمني، أنتظر غليان الماء فيما وخزٌ حاد ينهش صدغي: ترى أهو وخز الخوف أم الترقب أم الوله! يا إلهي، من يعينني على فهم ذاتي؟ أحس فجأةً أنني لست امرأةً ولا أمّاً، بل مجرد قشة في مهب ريح.

يتعاظم بكاء الأمهات الثكالى، فأجلس مهدودةً، وأعترف أنّ كلّ شيء فوق طاقتي على التحمل، وأنني، منذ أكثر من عام، أعيش ذعراً وترويعاً على ابني... وأنّ احتمال أن يموت برصاصة طائشة أو غير طائشة، أو في المعتقل أو على يد خاطفين مجهولين، وارد كلّ لحظة...

أرشف القهوة وأفكر به: ترى هل وصل سالماً إلى عمله؟ أهمّ أن أتصل به لكنني أتذكر أنه صار يتململ من اتصالاتي اللا معنى لها، والتي تربكه في عمله وتحرجه أمام زملائه، لكني وجدتُ نفسي أنهمر ببكاءٍ عاصف وأتأمل البقع الكبيرة التي يتركها الدمع على قميص النوم الذي أهداني إياه في عيد الأم...

طلبت رقمه، وأتاني الرنين الذي جعل نبضات قلبي تتسارع، ترى

هل سيرد عليّ أم سأتلقى رنين غيابه فقط؟... لكن ها قد أتاني صوته دافئاً حيوياً: خير ماما...

دفق غزير من الدمع، فيما صوتي المنافق المرتاح يقول له: ماذا لديك من ثياب للتنظيف سأذهب الآن إلى المصبغة...

قال: لا أعرف الآن، ليس الأمر مستعجلاً، سأرى عندما أعود...

كم كان صوتي يزقزق فرحاً وتفاؤلاً، فيما نهر دموعي يطوف كشلالين يحددان وجه أم...

قلت: أوكي حبيب قلب قلبي، أتعرف، قررت أن أطبخ ملوخية.

كما تريدين ماما.

تحول بكائي إلى تنهّدات عميقة ملأت المكان من حولي، كان العالم كله قلب أم يبكي، كان العالم كله يتنهد بحرقة وخزي من كل هذا القتل الوحشي...

جيش حر، جيش نظامي، نظام، معارضة، مفاوضات، مظاهرات، مسيرات مؤيدة، قتلى، شهداء، مفقودين، معتقلين، انفجارات، دمار، دمار...

الحمد لله، وصل إلى عمله سالماً، لم تنفجر سيارته بقنبلة، ولم يطلق عليه أحد الرصاص. أرنو إلى الهاتف، أتوق أن أتصل به مجدداً... لا مانع لدي من أن يغضب عليّ، سأقول له إنني أحتاج أن أسمع صوته كل لحظة، فأنا أخاف عليه لحد الذعر... وأتخيل أنني قد أفقده كما فقدتْ مئات الأمهات أولادهن... في بلد الجنون والموت...

أمسكت جهاز الهاتف وحدقت فيه، رجوته أن يرن، أن يلهمه الله ويتصل بي. كنتُ امرأةً بلا سند، كنت أماً تحولت إلى قلب متورم

بالحب... سأطبخ الملوخية بكلّ طاقة الحب في قلبي، سأقول له مع كل لقمة: ألف صحة على قلبك...

ابتلعت حبة مهدئة لأن من غير المعقول أن أنزف دمعاً طوال اليوم... فكرت أنني، منذ بداية الأزمة السورية وكمّ العنف الوحشي المروع، ما عدت قادرةً على الاختلاء بنفسي، بل صرتُ أحتاج من يعينني في فهم ذاتي... وبدا كل ما عشته بعيداً وغريباً عني كأنه لا يخصني...

لا أعرف ما إن كان الدواء المهدئ قد أعطاني شيئاً من راحة أم لأنني كنتُ أطبخ الملوخية بحماسة عاشقة حتى النخاع، ثم انهمكت بتنظيف زجاج وبلاط غرفته: سأجعل كل شيء في غرفته يلمع ويشرق كقلبي المتوهج بحبه.

شعرتُ براحةٍ عميقة وبأن الحب وحده يعيدني إلى ذاتي ويخلّصني من شوائب الغربة والوحشة.

عدتُ إلى الشاشة، كانت أم تتلوى كدجاجة مذبوحة فوق جثة ابنها الشاب، رائع الجمال، وقد أضفى شحوب الموت قدسيةً على وجهه، وبدا الوشاح الأبيض الذي يغطي رأسه أشبه بهالة نور...

اقتربت من الشاشة وطبعت قبلة على وجه الشاب، وكانت روحي تحتضن روح الأم المفجوعة بحنانٍ آسر...

قفزت إلى الهاتف واتصلتُ به، لم يردّ... هوى قلبي، وجدتني أكتب إليه رسالة: اتّصل بي ضروري...

سأجد أيّ عذر، سأخترع أية كذبة حتى يتّصل، لقد صرتُ فنانة في الكذب منذ بداية الأزمة...

ردّ عليّ برسالة بأنه حالياً في اجتماع مهم...

هدأتُ، الحمدلله، إنه بخير...

ذهبت أعصر الليمون الحامض وأضيفه إلى الملوخية التي تغلي في الطنجرة. لم أنتبه إلى أن دموعي سقطت فوق كأس الحامض... ترى هل سيعرف أنّ للملوخية طعم دمع أم أضناها هوى حارق وخوفٌ مزمن على وحيدها...

انطرحت على الأريكة متعبةً من انفعالات ساعات طويلة، وتركت لملامحي أن تتكيّف مع أحاسيسي، لستُ مضطرة أن أشدّ ملامح وجهي بخيوط الأمل الواهية المشرقة كما أفعل حين أتحدث إليه...

استرخى جسدي الأشبه بخرقة فوق الأريكة، وشعرتُ أنني تحررتُ من كل شيء إلا الحب... ومن بين سديم الخوف الذي يدوّم في روحي انبثق وجهه متغيراً ومتبدلاً، من لحظة ولادته ومروراً بسنوات عمره الست والعشرين. فكرتُ، وأنا أتقلّى على صور وجهه الذي أعبده، أنني معلقة بلحظة حب أبدية، وأنني لا أملك سوى إعادة إنتاج هذا الحب كل يوم.

الساعة الثانية ظهراً. أشتاق إلى صوته. لا شهية لي لأتناول غدائي رغم تقلصات معدتي بالجوع... أريد أن أسمع صوته حتى لو أغضبته باتصالاتي. أدرت الرقم وقلبي يتقافز وجداً مع كل رقم. أتاني صوته: خير ماما...

– لا شيء حبيبي، أردت أن أقول لك إن الملوخية رائعة... وإن...

قاطعني: يا إلهي يا أمي، أحسك طفلة صغيرة، أتتصلين وتعطّلينني عن عملي لمجرد أن تقولي إن الملوخية لذيذة...

– آسفة حبيبي...

– لا بأس ماما، باي.

اعذرني، ربما جعلني الخوف معتوهة. عليّ أن أبدّد بعض الوقت حتى عودته...

مشيت في شوارع ما عادت تشبه نفسها؛ شوارع مزينة بأوراق نعي لشبان في عمر الورود قُصفت أعمارهم، وكُتب تحت اسم كل واحد منهم: الشهيد البطل.

مررت بجانب دكان بائع الحمص والفول، اشتريت علبة مسبحة، لا لشيء فقط لأتأمل معجزة أنه لا يزال قادراً على العمل وعلى تلبية طلبات الزبائن، رغم أن ابنه الوحيد مات في المعتقل: اعتقلوه لأسبوعين وخرج جثة...

موت. رائحة زهر الليمون تفقدني صوابي، كم كنتُ أتنشقها بعمق حتى تصل إلى آخر نقطة في رئتيّ. انبثقت فقاعة اكتشاف في عقلي: ألا يمكن لرائحة زهر الليمون أن تشفي النفوس من سعار العنف والقتل؟

جنود وبنادق، وحواجز كثيفة من أكياس رمل، تفزّر محتوى بعضها... أهذه هي المدينة التي أحبها؟...

لكن كيف يكون الجحيم يا ترى؟! أدور حول نفسي مشوشةً ومذهولةً من مشاعر غامضة تعصف بي، لا همّة لي على تحليلها، لكنها تتآزر وينبثق منها سؤال يزلزل روحي: يا إلهي! من أيّ طينةٍ جبلتَ الإنسان؟!

حملت بيمناي علبة المسبّحة، أعرف أن ابني سوف يقول: لماذا اشتريتها؟ ألا يكفي أن نأكل ملوخية؟! وفي يدي اليسرى اشتريت باقة زهر النرجس.

أنظر إلى الساعة باستمرار. ما أبطأ مرور الوقت. متى سيعود سالماً، سالماً، لقد اشتقت إليه...

خفت أن أتصل به. في الحقيقة لا أملك الجرأة على الاتصال وقول التفاهات، من نوع الملوخية لذيذة، أو أخترع أكاذيب، كأنني دختُ في الشارع وكدت أسقط، وأتلذذ بلهفته عليّ...

لا، لن أقلقه وأشوشه وأربكه، لكن ما الذي يمنع أن أرسل إليه رسالة SMS، سأكتب مجرد عبارة: أنت حبيب قلب قلبي...

غسلتُ وجهي وشددتُ ملامحي بتعابير الثقة والأمل والتفاؤل، وجلستُ أنتظره. هوى قلبي، ها أنا أسمع وقع خطواته السريعة على الدرج...

قفزت من مقعدي وتسمّرت عند الباب، وقبل أن أفتح فكرتُ أنني لا أملك سوى إعادة إنتاج حبي له كل يوم، كما لو أنني أتحول إلى تعويذة تقيه الأذى.

لعبة الرحمة

أجفلت من صورتها المنعكسة على زجاج النافذة، كما لو أن وجهها فاجأها، كما لو أنه وجه امرأة لا تعرفها. أهذه صورتها حقاً؟ عجباً! هل هناك إنسان يجفل من ملامحه! يا لقسوة نظرتها! أحست أنها امرأة من فولاذ وهي تعي القسوة الهائلة المشعة من عينيها، التي عكسها الزجاج المُعتم. كانت تتأمله كعادتها دوماً بكره وحقد واحتقار وشيء من سادية، كما لو أنها تتمنى لو تؤذيه، لكنها لا تملك الجرأة على الفعل لأنه والد زوجها: الرجل التسعيني الذي نسيه الموت، وفضّل عليه شباناً بعمر الورود يحصد كل يوم العشرات منهم... كان يتلمس الأريكة باحثاً عن المُكبرة الدائرية بمساحة راحة يد، يستعملها في حل الكلمات المتقاطعة في الجرائد؛ متعته الوحيدة المتبقية في الحياة، وكانت المسافة بينها وبينه بضع خطوات. كان يعرف أنها تكرهه وتتمنى موته لكنه يتظاهر أنه لا يعرف، بل يطيب له من وقت لآخر أن يمتدحها ويشكرها على نعمة وجودها في حياته...

لم يكن يجرؤ على أن يكلمها مباشرةً لأنها ستزجره وتجيبه بقسوة

بكلمات جارحة، لكنه ابتدع أسلوباً غير مباشر للتحدث إليها، إذ يتظاهر أنه يكلّم نفسه، وفي الحقيقة كان يتحدث إلى نفسه لأن لا أحد يبالي به. انتبهت أنه سيتعثر بحرف السجادة لكنها لم تنبّهه، بل انتظرت بلذة سادية أن يتعثر ويسقط، وما كادت تبتسم منتشيةً من تخيله يسقط حتى تعثر فعلاً وكاد يسقط لولا أنه تمكن من الإمساك بمسند الأريكة. لم تعلق بكلمة. كانت ترمقه بلا رحمة: كيف يتلمس بأصابعه المتخشبة سطح الأريكة باحثاً عن المكبرة. كانت قد خبّأت المكبرة خلف الوسادة الصغيرة عمداً.

سألها بأسلوبه غير المباشر: يا إلهي! أين اختفت المكبرة؟

لم تجب، بل تنهدت متأففةً كي توصل له جرعة الاحتقار اليومية التي تهديه إياها، وفيما هي ترفع رأسها وتغبّ الهواء ليكون صوت تذمرها مسموعاً، انتبهت لصورتها منعكسةً في زجاج النافذة: يا للقسوة المخيفة المرتشحة من ملامحها، وتلك النظرة المعتمة والتي لا تحمل ذرة من رحمة للعجوز المسكين الذي نسيه الموت!...

يئس من محاولته العثور على المكبرة. استدار متجهاً إلى غرفته بخطوات متأنية. إنه شبه أعمى، فقد ضمرت شبكية عينيه، و لم يعد قادراً على الرؤية بوضوح، بالكاد يميز الحركة والضوء، وبمساعدة المكبرة يمكنه حل الكلمات المتقاطعة – تلك الهواية الوحيدة المتبقية لديه والتي يسميها لعبة الرحمة...

كان يعرف أنها لن ترد حين سيقول لها بصوت مرتعش بالحنان والتوسل: تصبحين على خير، ومع ذلك كان يقول لها كل مساء تصبحين على خير... ويتلقى بصدرٍ متعب من الحب وهزيمة الزمن

صفعة صمتها المزدري له. كان يشعر كل صباح أن عليه أن يعتذر منها كونه لا يزال حياً، وأن ابنه – زوجها – قد مات... وكان عليه من وقت لآخر أن يتحمل نوبات غضبها المروعة وهي تصرخ في وجه القدر غير العادل، بأنه أخذ زوجها، ويسمعها وهي تصرخ لاعنة حظها ومعاتبة زوجها بصوت كالجعير: طيب، تركتني وتركت لي إرثاً عظيماً... ما هذا الظلم، تأخذ الشباب وتترك العجائز...

كان يعرف كم تكرهه وتسخر منه، وتسميه الإرث، وأحياناً تقول: أية لعنة تلحقني، فيدرك أنها تعنيه، لكنه كان يتقبل كل شيء منها، و لم يستطع أن يكرهها أبداً، و لم يعاتبها مرة واحدة. كان رجلاً معجوناً بالرأفة والحنان ولايعرف الكره أبداً، وكان يستطيع، رغم ضعف نظره الشديد ورغم ذلّ شيخوخته، أن يرى بطانة روحها المتألمة، ويتألم كونها لا تسمح له بالتقرب منها ومؤاساتها، وكان ينجح من وقت لآخر في كسب ودها، فيراها ترنو إليه بنظرة متعبة تتلاشى قسوتها شيئاً فشيئاً، وتهز رأسها موافقة على كلامه وروحه المحبة للعالم، المتصالحة مع الحياة. كان يجبرها – دون أن يعرف – أن تعترف بينها وبين نفسها أن حديثه ظريف وذكي وممتع، لكنها لم تستطع أن تتحمل قسوة الحياة، وأن تعي تصحّر روحها. لقد قست عليها الحياة إلى درجة غير محتملة فحوّلتها إلى امرأة مهجورة، كقربة جوفاء، و لم تجد من وسيلة لتخفيف آلامها إلا السخرية؛ السخرية من المصائب المتتابعة التي تصفعها بها الحياة، فقد توفي زوجها بالسكتة القلبية، تاركاً لها ثلاث أولاد في عمر المراهقة، وأب عجوز، وفقر...

كان عليها أن تتظاهر بالقوة وأن توهم أولادها أنها تتمتع بمتانة نفسية عالية، وكانت تتفرج على نفسها كيف تتحدث إليهم مغذيةً الأمل في نفوسهم؛ الأمل بالحياة، والمستقبل المشرق، وتتساءل ترى هل يصدّقونها؟ تتمنى لو تسبر عقولهم وقلوبهم وتعرف حقيقة مشاعرهم، وهل يصدّقونها أم يشفقون عليها؟ كانت ترزح تحت أعباء ثقيلة، العمل المضني ثماني ساعات في معمل الغزل، ثم التسوق باحثةً عن سلع بأرخص الأسعار، وبعدها العمل في البيت ورعاية الأولاد والعجوز، وفي كل مساء تسقط على السرير كجثة... مرتعبةً من احتمال انهيارها، حتى صار لديها ذعر من احتمال أن تفقد القدرة على الاستمرار فتنهار... وبدأت تعيش حالات من التشوش الذهني الشديد، إذ تعجز عن التفكير من شدة الإعياء. كم كانت تتألم وتبكي مرتشفةً دموعها إلى الداخل وهي تعي عجزها عن التفكير. كانت تتأمل تلك الإنسانة التي صارتها: آلة تعمل دون توقف ودون راحة، وحتى دون صيانة من وقتٍ لآخر؛ إنسانة تُسحق ببطء وبيدٍ غليظة لا تعرف الرحمة تسمّيها يد القدر.

حاولت أن تدعم نفسها بالصلاة، وكانت تركع وتشبك يديها وتغمض عينيها، وتتضرع لصور قديسين أن يعينوها على الاستمرار وأن يغذّوا الأمل في نفسها، لكنها كانت تعرف أن إيمانها قد تلاشى، وأن صلاتها بلا روح ودون يقين. لقد فقدت الإيمان تماماً، رغم تظاهرها أنها لم تفقده، لكنها تشعر، وهي تتلو الصلوات بآلية، أن كلماتها ميتة، وأنها لا تخرج من قلبها بل من شفتيها، و لم تنفع محاولاتها في تأنيب نفسها على فقدانها إيمانها، و لم ينفع إنكارها تلك

الحقيقة، وتظاهرها أنها لا تزال مؤمنة، لكنّ تلك اللحظات المفاجئة التي كانت تصرخ فيها في وجه القدر، وترمق صور القديسين غاضبة ومعاتبة، كانت كافية لتؤكد لها أن إيمانها قد تلاشى... وأنها، حين تنظر إلى أعماقها، لا تجد سوى صحراء قاحلة قد احترقت بذور الأمل فيها...

لم تكن لديها صداقات، كانت وحيدة في الحياة، تحمل صليبها الثقيل وتمشي، وكان عزاؤها الوحيد أن أولادها سيعوضونها عن سنوات الكدح وسيكافؤنها على تضحياتها وتفانيها في خدمتهم، كانت تتخيلهم ثلاث شبان ينضحون صحةً ونشاطاً، يعملون ويكسبون المال ويعيشون عيشةً كريمة... وهي تتأملهم بسعادة وتهمس لنفسها: لم يضع تعبك سدى...

لكنّ الكارثة انقضّت عليها مفاجِئةً، كما انقضت على ملايين، على شعب بأكمله؛ كارثة لم تستطع تصديقها، حين تمّ الاحتفاظ بابنها البكر وأخيه في الجندية. كانت تنتظر تسريحهما، وكانا يرغبان في السفر إلى دول الخليج للعمل في شركة مقاولات؛ كانت تشاركهما أحلامهما بالسفر والعمل وجمع المال. ابنها البكر مهندس وابنها الأوسط متخرج من كلية التجارة، لكنهما الآن جنديان يحملان بندقية ليدافعا عن الوطن من العدو الداخلي؟!

أحدهما في حمص والآخر في حماة، وهي في اللاذقية مسمّرة أمام الشاشة تتأمل الجنازات الجماعية للجنود، تليها جنازات جماعية لمدنيين، ثم جنازات جماعية للثوار، وبعدها تنهار وتتكوم حطاماً، وقد أفقدها رعبها على ولديها قدرتها على التفكير والكلام والنوم... تشعر

رغماً عنها أنها تنتظر نبأ استشهادهما، يجنّ جنونها وتصرخ: ما الذي نعيشه؟ كيف تحولت حياتنا إلى جحيم؟ بدأت تعاني من أرق معّند. يطلع الفجر وهي محدقة في العتمة متسائلة عن معنى الحياة وغاية الألم؟ مروّعة من قسوة الحياة، من الموت الذي صار الحقيقة الوحيدة واليقين الوحيد في حياتها...

جفّت دموعها فما عادت قادرةً على البكاء. صورتهما محفورةٌ في قلبها، مجندَين يحملان بندقيتين محشوتين بالرصاص يعلّقانها بكتفيهما، تجعلانها تهيم في شوارع اللاذقية تتأمل جنوداً بعمر ولديها، يقفون خلف حواجز من أكياس الرمل، ويعلقون بنادق في أكتافهم.

ما هذه الحياة؟ كانت تعيش مشاعر طاحنة من الألم والذعر والانسحاق والترويع، مشاعر مزلزلة لم تستطع أبداً صياغتها في كلمات، ولا تحويلها إلى أفكار، لقد عُطب تفكيرها من هول الكارثة؟ إنها عاجزة عن استيعاب وحشية تلك الحقيقة بأنّ المهندس الشاب وأخيه المتباهي بشهادته من كلية التجارة قد نُسف مستقبلهما واحترق حلمهما بالسفر وتحولا إلى جنديين في قلب الموت، وأنها، بمجرد رصاصة تخترق صدرهما، سوف تتحول إلى أمّ الشهيدين...

صبّت كل ألمها وقهرها على العجوز، كما لو أن من واجبه أن يموت كي يعيشا. صار تفكيرها غريباً ومريضاً، إذ تتخيل أنّ على العجوز أن يموت كي لا يستشهد ولديها. كان يحاول أن يؤاسيها ويذكّرها أنه يعبدهما، فهو جدهما، لكنها تزجره موصلةً له قرفها منه واحتقارها له، كما لو أنه مسؤول عن أزمة الوطن...

لم تكن تعرف أن الألم حين يزيد عن حد معين فإنه يشوه الروح

ويجعلها حاقدة ومسمومة بالكره والغضب؛ ألم وحشي صار يغويها بأن تضع حداً لحياتها وتنتحر، ولكن كيف ستقتل نفسها وأحباؤها هناك، في قلب الجحيم، في قلب الزلزال. بيوت تتهدّم على أصحابها، جثث أطفال ونساء، ونازحين، ومشردين، ومعتقلين، ومعطوبين... وطنٌ تحوّل إلى ورقة نعوة...

ماذا لو عادا إليها معطوبين، كمئات الجنود الذين تراهم على الشاشة وقد فقدوا عيناً أو يداً أو ساقاً؟...

تجرجر نفسها من يوم إلى يوم، تزحف فوق الزمن، تشعر بروحها تنزف الأمل: نزيف أبيض، هكذا تتخيل نزيف الروح، إنها تشعر به تماماً كما تشعر بدمها، نزيف الأمل لزج يرشح من العينين بدموع لزجة حارقة، أما نزيف الأمل فهو أبيض أشبه بدموع لزجة.

يا لوحشية الحياة! خطفت زوجها وقذفت بولديها في جحيم الموت، و لم تترك لها إلا عجوزاً لا يخجل أن يعيش يوماً بعد يوم وهو في عقده التاسع، ولا يخجل أن يتلذذ بطبخها اللذيذ، وأن يجد متعة في حل الكلمات المتقاطعة... عليها أن تعاقبه وتنتقم منه، لأنها لا تستطيع معاقبة القدر، ولا مساءلة هؤلاء الذين يمسكون حياة العباد بيدٍ من حديد، ويقررون مصير ملايين الشبان ويزجّونهم في متاهة حماة الديار...

كلما ازداد ألمها أمعنت في إذلال العجوز، حتى صارت تصرخ به أنه يأكل كثيراً، ترشقه بنظرات من نار وتقول: خير، شهيتك مفتوحة، لم تترك قطعة لحم إلا والتهمتها... يشعر أنه حيوان، يرتبك ويطرق خجلاً ويقول بصوت واهن: لا آكل إلا ما تضعينه في صحني...

فتوغل في قسوتها وتقول: يبدو أنّ هناك جنّاً يعيشون معنا يأكلون اللحم...

صار العجوز متنَفساً لنقمتها، بل صارت تمعن في إذلاله لتقيس مدى تحمله... أذهلها بقدرته على امتصاص إهانتها؛ قدرته على أن يُغلّف كل ذله وقهره بابتسامة، وأن يقول لها تصبحين على خير، يقولها بصدق ومحبة... ويتجرأ من حين لآخر وحين يراها ساهمة أن يطمئنها أن ولديها بخير وسوف يرجعان إليها قريباً...

صعقته ذات مرة حين انفجرت به قائلةً: لن يعودا سالمين طالما أنت حي، لن يعودا إن لم تمت... أوف، ما هذه الحياة؟!

يومها انهار، ترنّح من عنف الألم، مصدوماً من قسوة البشر، ودخل غرفته وصلى بكل ذرّة في كيانه أن يأخذ الله أمانته... كان يتوق للموت، مسح دموعاً انسكبت في تجاعيد وجهه، ومسح وجهه المتغضن من القهر وهو يحاول طرد طنين صوتها وكلماتها من رأسه...

لم تعتذر و لم تحاول مؤاساته بكلمة، مرت أيام وهي مسمرة أمام الشاشة حطام امرأة، وهو في غرفته منطوياً من ألم المهانة والقهر محاولاً إيجاد شيء من رحمة في الكلمات المتقاطعة، قابضاً على المُكبّرة متهجّياً الكلمات.

عجوز يخجل أنه لا يزال حياً، لا يزال يزحف على الزمن يوماً بعد يوم؛ عجوز يعيش متكئاً على الذكريات ولا معين له في الحياة سوى رحمة مكبرة... يهزّ رأسه مدركاً حقيقة عيشه: لا أملك سوى ذكريات ومكبرة. يضم الجرائد إلى صدره ويهمس لوسادته التي تفوح

برائحة الذكريات: لعبة الرحمة.

لم تستطع تحمل انعكاس صورتها في زجاج النافذة. ياه، أإلى هذا الحد بلغت بها القسوة والوحشية؟ أهذا هو وجهها حقاً؟! كيف تكون أماً وهي تملك كل هذا الحقد المروع الوحشي على عجوز مسكين؟ ما ذنبه إن كان حياً؟ ما ذنبه إن كانت آلة قتل وحشية تقتل الشباب والأمل؟! كيف أمكنها أن تذلّه بتلك الطريقة وهو بمثابة والدها؟ وأيّ ظلم أن يكون شمّاعة غضبها ونقمتها من الحياة؟...

أسدلت الستارة على النافذة واتجهت إلى الأريكة، قرفت من نفسها وهي تتذكر كيف خبأت عامدةً المكبرة كي لا يراها العجوز... أمسكت المكبرة واتجهت إلى غرفته التي لا تدخلها أبداً ولا ترتبها، ولا تبدّل شراشف سريره... تتعمّد أن يغرق في القذارة والإهمال. شحبت من هول قسوتها وشعرت أن قسوتها ليست سوى انعكاس لقسوة ووحشية نظام يخنقها كما يخنق الملايين... نظام حوّلها إلى وحشة وأجبرها أن تخسر آدميتها وإنسانيتها...

رأته مكوّماً في سريره، همست: ألا تريد المكبرة؟...

لم يردّ. كانت تعرف أنه مثلها مصابٌ بالأرق... رفعت صوتها: ألا تريد المكبرة؟

كان صوتها رقيقاً، يرشح بالحنان، كان صوتها إنسانياً...

أشعلت الضوء وقد أغاظها صمته، هوى قلبها وهي ترى بركة دماء على البساط القذر العتيق ويده متدلية وقد قطع شرايينه... انهارت وركعت مذعورةً: كانت بضع نقاط من الدم تتساقط فوق صفحة الكلمات المتقاطعة، لعبة الرحمة، كما يسميها.

أمكنها أن تسمع صوته العذب يقول لها وداعاً، لعلك على حق، إذ يجب أن أموت كي أفديهما...

شعرت برجفة عنيفة تهزّ جسدها، وسقطت المكبرة من يدها... المكبرة التي تحولتْ إلى مرآة كاشفة تفضح أعماقها وتشهد عليها كيف تحوّلت إلى قاتلة.

في حي بابا عمرو الحمصي مات والد حسام أثناء مشاركته في القتال إلى جانب جيش النظام. في اليوم نفسه وصل نبأ وفاة والد إياد مصحوباً بإشاعة قوية أنه كان في بابا عمرو أيضاً، وأنه من عناصر الجيش الحر.

لم يعد بمقدور الصديقان القديمان، إياد وحسام، أن ينظرا في عيون بعضهما، فقد يكون والدُ الأول اشتبك مع والد الثاني وقتل كلٌ منهما الآخر.

لكن ماذا عن هيثم؟ لماذا يشعرُ بكلّ هذا الهلع بعد استدعائه من قبل الأمن السوري؟ وهل ستتمكّن رلى من إسقاط زوجها الديكتاتور بعد ربع قرن من الكبت، رافعةً شعار «الزوجة تريد إسقاط الزوج».

وجوهٌ تحفر بملامحها لحظات الثورة السورية، يبدو أشدّها ألماً وجه أم كفاح، الأم التي تعيش هاجس غياب ابنها الذي التحق بالجندية ليقاتل «العصابات الإرهابية»، متسائلةً: ألا يحقُّ للإنسان أن يكون جباناً؟ ألا يحقُّ لشاب أن يرفض حمل السلاح؟

هيفاء بيطار روائية وقاصّة سورية صدر لها عن دار الساقي «فضاء كالقفص» و«كومبارس» و«امرأة من هذا العصر» و«SMS».

ISBN 978-614-425-732-6
9 786144 257326

DAR AL SAQI
الساقي